تاج العروس

الحاوي لتهذيب النفوس

للعارف بالله تعالى سيدى الشيخ الإمام

أحمد بن محمد بن عبد الكريم ابن عطاء الله السكندري

رضي الله عنه

يطلب من المعهد الاسلامى السلفى

تاج العروس

الحاوي لتهذيب النفوس

للعارف بالله تعالى سيدى الشيخ الإمام

أحمد بن محمد بن عبد الكريم ابن عطاء الله السكندري

رضي الله عنه

يطلب من المعهد الإسلامي السلفي

11/11/2021 22:38

ترجمة المؤلف

الإمام أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله السكندري

بسم الله الرحمن الرحيم

هو الشيخ الإمام تاج الدين، وترجمان العارفين، أبو الفضل أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن عيسى بن الحسين بن عطاء الله، الجذامي نسبا، المالكي مذهبا، الإسكندري دارا، القرافي مزارا، الصوفي حقيقة، الشاذلي طريقة، أعجوبة زمانه، ونخبة عصره وأوانه، المتوفى في جمادى الآخرة سنة تسع بتقديم التاء وسبعمائة، قاله الشيخ زروق.

وقال في الديباج المذهب: كان جامعا لأنواع العلوم من تفسير وحديث وفقه ونحو وأصول وغير ذلك. كان رحمه الله متكلما على طريق أهل التصوف واعظا، انتفع به خلق كثير، وسلكوا طريقه. قلت: وقد شهد له شيخه أبو العباس المرسي بالتقديم. قال في لطائف المنن: قال لي الشيخ: الزم، فوالله لئن لزمت لتكونن مفتيا في المذهبين، يريد مذهب أهل الشريعة أهل العلم الظاهر، ومذهب أهل الحقيقة أهل العلم الباطن. وقال فيه أيضا: والله، ليكونن لك شأن عظيم، والله ليكونن لك شأن عظيم، قال: فكان بحمد الله ما لا أنكره.

وله التآليف خمسة: التنوير في إسقاط التدبير، ولطائف المنن في مناقب شيخه أبي العباس وشيخه أبي الحسن، وتاج العروس وهو مؤلف منهما، ومفتاح الفلاح في الذكر وكيفية السلوك. وله أيضا: القول المجرد في الاسم المفرد.

مضمون هذا الكتاب «تاج العروس»: تحقيق الأحوال والمقامات، وأحكام الأذواق والمنازلات، وهو نصيب المستشرقين من المريدين والمبتدئين من العارفين. وهذا النوع من أكثر ما وقع فيه، ومادته من مثل كتاب الحاتمي في المعاملات، والبوني في المنازلات إلى غير ذلك.

❁❁❁

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله رَبِّ العالمين، وصلى اللهُ وسلّم على سيّدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذا كتابُ «تاجِ العروس الحاوي لتهذيب النفوس» تأليفُ الشيخ الإمام الجامعِ بين علمي الشريعة والحقيقة تاجِ الدّينِ أبي العباس أحمد بن عطاءِ الله السكندري رحمه الله تعالى وأسكنه بحبوحةَ جنتهِ، وأفاضَ علينا وعلى المسلمين مِن بركته، وصلى اللهُ وسلّم على سيدنا محمد وصحابته آمين.

التوبة

أيها العبدُ، اطلبُ التوبةَ من اللهِ في كلِّ وقتٍ، فإنّ الله تعالى قد ندبَك إليها، فقال تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾، وقال رسُول الله صلى الله عليه وسلم: «إني ليُغَانُ على قَلْبِي، وإني لأستغفر الله في اليوم سَبْعين مَرّة».

فإن أردتَ التوبة فينبغي لك أن لا تخلوَ من التفكّر طُولَ عُمرك، فتفكَّرْ فيما صَنعْتَ في نهارك، فإن وَجدْتَ طاعةً فاشكُرْ الله عليها، فإنْ وَجدْتَ معصيةً فوبّخْ نفسَك على ذلك واستغفر الله وتُبْ إليه، فإنه لا مجلسَ مع الله أنفعَ لكَ مِن مجلسٍ تُوبّخ فيه نفسَك. ولا توبّخها وأنت ضاحكٌ فرِحٌ، بل وبّخها وأنتَ مُجِدٌّ صادقٌ مُظهرٌ للعبُوسةِ حَزِينُ القلب منكسِرٌ ذليل. فإن فعلت ذلك أبدلكَ اللهُ بالحُزن فرحًا، وبالذّل عزًّا، وبالظُّلمةِ نورا، وبالحجاب كشفا.

وعن الشيخ مَكينِ الدّين الأسمر رحمه الله تعالى وكان من السبعة الأبدال قال: كنتُ في ابتداء أمري أخيطُ وأتقوّتُ من ذلكِ وكنتُ أعدّ كلامي بالنهار، فإذا جاء المساء حاسبْتُ نفسي فأجدُ كلامي قليلا، فما وجدْتُ فيه مِن خيرٍ حمدتُ اللهَ وشكرتُه عليه، وما وجدت فيه من غير ذلك تُبتُ إلى الله واستغفرتُه؛ إلى أن صار بدلا ﷺ.

[واعلم] أنه إذا كان لكَ وكيلٌ يحاسِبُ نفسَه ويحقّقها فأنت لا تحاسبه لمحاسبته نفسِه، وإن كان وكيلا غيرَ محاقق لنفسه فأنت تحاسبه وتحققه وتُبالغ في محاسبته. فعلى هذا ينبغي لك أن يكون عملك كلُّه لله تعالى ولا ترى أنك تفعل فعلًا والله تعالى لا يحاسبُك ولا يحاققك.

وإذا وقعَ منَ العبدِ ذنبٌ وقعَ معهُ ظُلمة، فمِثالُ المعصيةِ كالنار، والظُلمةُ دُخانها، كمَن أوقدَ في بيتٍ سبعين سَنةً، ألا تراهُ يَسودُّ؟ كذلكَ القلبُ يَسودُّ بالمعصية فلا يطهُرُ إلا بالتوبة إلى الله، فصارَ الذلُّ والظُلمةُ والحِجابُ مُقارنةً للمعصية، فإذا تُبتَ إلى الله زالَتْ آثارُ الذنوب.

ولا يدخلْ عليكَ الإهمالُ إلا بإهمالك عن مُتابعَة النبي ﷺ، ولا تحصُل لك الرِّفعةُ عندَ الله تعالى إلا بمُتابعَة النبي ﷺ. والمتابعةُ له عليه الصلاة والسلام على قسمَين: جَليّة، وخفيّة.

فالجليّة: كالصلاةِ والصِيامِ والزكاة والحج والجهاد وغير ذلك.

والخفية: أن تعتقدَ الجمْعَ في صلاتك والتدبُّرَ في قراءتك، فإذا فعلْتَ الطاعة كالصلاة والقراءة ولم تجد فيها جمْعًا ولا تدبُّرًا، فاعلمْ أن بك مرضا باطِنًا من كِبرٍ أو عُجبٍ أو غير ذلك، قال الله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ فيكون مثالُكَ كالمحمُوم الذي يجد في فمه السُكَّر مُرًّا.

فالمعصية مع الذلّ والافتقار خيرٌ من الطاعة مع العِزّ والاستكبار. قال الله تعالى حكايةً عن إبراهيمَ الخليلِ عليه وعلى نبينا أفضلَ الصلاة وأتمَّ السلام: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾. فمفهومُ هذا أن من لم يتبعه ليسَ منه. وقال تعالى حكايةً عن نوحٍ عليه وعلى نبينا المصطفى أزكى الصلاة والسلام: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ فأجابه ﷺ بقوله تعالى: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾. فالمتابعةُ تجعَلُ التابعَ كأنه جزءٌ من المتبوعِ وإن كانَ أجنبيا، كسَلمانَ الفارسيّ رضى الله عنه لقوله ﷺ: "سلمان مِنّا أهلَ البيت". ومعلوم أنّ سَلمانَ مِن أهل فارس، ولكن بالمتابعة قال عنه ﷺ تعليمًا. فكما أن المتابعة تُثبت الاتصال كذلك عدمُها يُثبت الانفصال.

مُتابَعَةُ الرسول صلى الله عليه وسلم

وقد جمعَ اللهُ الخيرَ كلّه في بيتٍ وجعَل مفتاحه متابعة النبي ﷺ، فتابِعْه بالقناعة بما رزقك الله تعالى والزُهدِ والتقلل من الدنيا وترك ما لا يعني من قولٍ وفعلٍ. فمن فُتحَ له باب المتابعة فذلك دليلٌ على محبة الله له، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ الآية. وإذا طلبتَ الخير كله فقل: اللّهمّ إني أسألك المتابعة لرسولك ﷺ في الأقوال والأفعال. ومَن أراد ذلك فعليه بعدم الظُلم لعِباد الله في أعراضهم وأنسابهم، فلو سَلِمُوا من ظُلم بعضهم بعضا لانطلقوا إلى الله ولكنهم مُعوّقون كالمِديان بسبب مَن يطلبه.

[واعلَمْ] أنكَ لو كنتَ مُخَصَّصاً عندَ الملِكِ مُقرَّباً منه وجاء مَنْ يَطلُبك بدَيْنٍ ضيق عليك ولو كان قدراً يسيراً، فكيف بك إذا جئتَ يومَ القيامةِ ومائةُ ألفِ إنسانٍ أو أكثرُ يطلبونك بديونٍ مختلفةٍ من أخذِ مالٍ وقذفِ عِرضٍ وغيرِ ذلك، فكيف يكون حالُك؟ المُصابُ حقاً مَنْ محقتْه الذنوبُ والشهواتُ حتى جعلته كالشنِّ البالي، هذا هو المنكوبُ المُعزى. ذهبت مَآكلُه وشهواتُه مِلأً بها المِرْحاض وأرضى بها زوجتَه، ويا ليتها كانت مِن حلال. فأوَّلُ المقامات: التوبة، ولا يقبل ما بعدها إلا بها.

مثال العبدِ إذا فعَلَ المعصيةَ كالقِدرِ الجديد يُوقَد تحتها النارُ ساعةً فتسوَدُّ، فإن بادرتَ إلى غَسلِها انغسلَتْ من ذلك السواد، وإن تركتها وطبَخْتَ فيها مرةً بعد مرةٍ ثبتَ السوادُ فيها حتى تكسَّرَ ولا يُفيد غَسلُها شيئاً. فالتوبة هي التي تغسل سوادَ القلْبِ فتبرزُ الأعمالُ وعليها رائحة القبول. فاطلبْ من الله تعالى التوبةَ دائماً، فإن ظفرتَ بها فقد طاب وقتُك، لأنها موهبة من الله تعالى يضعُها حيثُ شاء من عباده.

وقد يظفر بها العبدُ المشقَّقُ الأكعابِ دون سيده، وقد تظفر بها المرأةُ دون زوجها، والشابُّ دون الشيخ، فإن ظفرتَ بها فقد أحبكَ اللهُ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾.

وإنما يغتبطُ بالشيء مَنْ يَعرف قدرَه. ولو بذرتَ الياقوتَ بين الدوابِّ لكان الشعيرُ أحبَّ إليهم، فانظرْ من أيِّ الفريقين أنت؟ إن تبتَ فأنتَ من المحبوبين، وإن لم تتبْ فأنتَ من الظالمين، قال الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾. من تابَ ظفر، ومن لم يتبْ خسِرَ. ولا تَقطعْ يأسَك وتقول: كم أتوبُ وأنقضُ؟ فالمريضُ يرجو الحياةَ ما دامتْ فيه الروحُ، وإذا تاب العبدُ فرِحَتْ به كارهُ من الجنة، وتفرحُ السماءُ والأرضُ والرسولُ ﷺ ① وتفرح ربه

فالحق سبحانه لم يَرضَ أن تكونَ محباً بلْ محبوباً، وأينَ المحبوبُ من المحبّ؟ أفٍ لعبدٍ يعلم إحسانَ المحسِنِ فيجترىء على معصيته، ولكن ما عرَف إحسانَه من آثرَ عِصيانَه، وما عَرفَ قدرَه مَن لم يُراقبه، وما رَبِحَ مَن اشتغَلَ بغيره، فعلِمَ أن النفسَ تدعوه إلى الهلكة فتبعَها، وعلم أن القلبَ يدعوه إلى الرُّشد فعصاه، وعلم قدرَ المعاصي فواجَهه بالمعصية، ولو علم اتصافَه بعظمته لما قابلَه بوجود معصيته، وعلم قُربَ مولاه وأنه يَراه فسارعَ ⑪ لما عنه نهاه، وعلم أثر الذنب المرتَّب عليه دُنيا وأخرى، وغيباً وشهادة، فما استحيا ⊖ من ربِّه، ولو علم أنه في قبضته لما قابلَه بمخالفته.

❁❁❁

⑪ وفي نسخة: لما سارع

⊖ وفي نسخة: لم تستحيا

ضَرَرُ المَعْصِيَة

[واعلَمْ] أَنَّ المعصيةَ تتضمَّنُ نقضَ العهدِ، وتحليلَ عَقْدِ الوُدِّ، والإيثارَ على المَوْلى، والطاعةَ للهَوى، وخَلْعَ جِلْبابِ الحياءِ، والمبارزةَ للهِ بما لا يَرْضى، مع ما في ذلك من الآثارِ الظاهرةِ من ظهورِ الكدورةِ في الأعضاءِ والجمودِ في العَيْنِ والكسلِ في الخِدمةِ وتركِ الحِفظِ للحُرمةِ وظهورِ كسبِ الشهواتِ وذَهابِ بهجةِ الطاعاتِ.

وأما الآثارُ الباطنةُ فكالقساوةِ في القلبِ، ومعاندةِ النفسِ، وضيقِ الصدرِ بالشهواتِ، وفقدانِ حلاوةِ الطاعاتِ، وترادُفِ الأغيارِ المانعةِ من بُروقِ شوارقِ الأنوارِ، واستيلاءِ دَوْلةِ الهوى إلى غيرِ ذلك من ترادُفِ الارتيابِ ونسيانِ المآبِ وطولِ الحسابِ.

ولو لم يكنْ في المعصيةِ إلا تبدُّلُ الاسمِ لكان ذلك كافياً، فإنك إذا كنتَ طائعاً تُسمَّى بالمُحسِنِ، وإذا كنتَ عاصياً انتقلَ اسمُك إلى المُسيءِ المُعرِضِ. هذا في انتقالِ الاسمِ، فكيفَ بانتقالِ الأثرِ من تبدُّلِ حلاوةِ الطاعةِ بحلاوةِ المعصيةِ ولذاذةِ الخِدمةِ بلذاذةِ الشهوةِ؟ هذا في تبدُّلِ الأثرِ، فكيفَ بتبدُّلِ الوصفِ بعد أن كنتَ موصوفاً عند اللهِ بمحاسنِ الصفاتِ فيُعكَسُ الأمرُ فتتَّصِفُ بمساوي الحالاتِ؟ هذا في تبدُّلِ الوصفِ، فكيفَ بتبدُّلِ المرتبةِ، فبعد أن كنتَ عندَ اللهِ من الصالحين صِرْتَ عنده من المفسدين، وبعد أن كنتَ عنده من المتقين صِرْتَ عنده من الخائنين؟ فإنْ كانت الذنوبُ منفتحةَ الأبوابِ في وجهِك فاستغِثْ باللهِ والجأْ إليه واحْثُ الترابَ على رأسِك وقُلْ: «اللهمَّ انقُلْني من ذُلِّ المعصيةِ إلى عِزِّ الطاعةِ، وزُرْ ضرائحَ الأولياءِ والصالحين».

وقل: «يا أرحمَ الراحمين».

أتريدُ أن تجاهدَ نفسَك وأنتَ تُقوِّيها بالشهواتِ حتى تغلِبَك؟ ألا فقد جهِلْتَ، فالقلبُ شجرةٌ تُسقى بماءِ الطاعةِ، وثمراتُها مواجيدُها، فالعينُ ثمرتُها الاعتبارُ، والأذنُ ثمرتُها الاستماعُ للقرآنِ، واللسانُ ثمرتُه الذكرُ، واليدانِ والرجلانِ ثمرتُهما السعيُ في الخيراتِ، فإذا جفَّ القلبُ سقطت ثمراتُه. فإن أجدبَ فأكثِرْ من الأذكارِ، ولا تكنْ كالعليلِ يقولُ: لا أتداوى حتى أجدَ الشفاءَ، فيقالُ له: لا تجدُ الشفاءَ حتى تتداوى.

فالجهادُ ليسَ معه حلاوةٌ، وما معه إلا رؤوسُ الأسنّةِ، فجاهِدْ نفسَك، هذا هو الجهادُ الأكبرُ.

واعلم أن الشكلى لا عيدَ لها، بل العيدُ لمن قهرَ نفسَه، لا عيدَ إلا لمن جمعَ شملَه.

جازَ بعضُهم على دَيرِ راهبٍ فقال له: يا راهبُ، متى عيدُ هؤلاءِ القومِ؟ قال: يومَ يُغفَرُ لهم. ما مِثالُك مع نفسِك إلا كمن وجدَ زوجتَه في حانةِ خمّارٍ، فأتاها بالملابسِ الحسنةِ والمآكلِ الطيبةِ،

وإذا تركت الصلاة أصبحت تطعمها الهرائس والألوان.

بقي بعضهم أربعين سنة لا يحضر الجماعة لما يشم من نتن قلوب الغافلين. فما أعرفك بمصالح الدنيا، وما أجهلك بمصالح آخرتك. مثال الدنيا عندك كمن خرج إلى الضيعة واجتهد فخزن الأقوات، فقد أتيت بما يعود نفعه عليه في وقته، وأنت خزنت حيات الشهوات وعقارب المعصية فهلكت. كفى بك جهلا أن الناس يخزنون الأقوات لوقت حاجتهم إليها، وأنت تخزن ما يضرك وهي المعاصي، هل رأيت من يأتي بحيات فيربيها في داره، فها أنت تفعل ذلك.

وأضر ما يخاف عليك محقرات الذنوب، لأن الكبائر ربما استعظمتها فتبت منها واستحقرت الصغائر فلم تتب منها. فمثالك كمن وجد أسدًا فخلصه الله منه، فوجد بعده خمسين ذئبا فغلبوه. قال الله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾.

الكبيرة حقيرة في كرم الله، فإذا أصررت على الصغيرة صارت كبيرة، لأن السم يقتل مع صغره، والصغيرة كالشرارة من النار والشرارة قد تحرق بلدة، و«معظم النار في مستصغر الشرر».

من أنفق عافيته وصحته في معصية الله، فمثاله كمن خلف له أبوه دينارًا، فاشترى بها حيات وعقارب. وجعلها حوله، تلدغه هذه مرة وتلسعه هذه أخرى، أفما تقتله؟ وأنت تمحق الساعات في مخالفته، فما مثالك إلا كالحداة تطوف على الجيفة، حيث ما وجدتها انحطت عليها. فكن كالنحلة صغير جرمها عظيمة همتها، تجني طيبا وتضع طيبا. طالما تمرغت في مواطن المحن، فتمرغ في محاب الله عز وجل.

فهذه الحقيقة تبين طريقك ولكن من أماتته الغفلة لم ترده النكبات، لأن المرأة الناقصة العقل يموت ولدها وهي تضحك، فكذلك أنت تنكب عن قيام الليل وعن صيام النهار وفي جميع جوارحك ولا تتألم، وما ذلك إلا لأن الغفلة قد أمانت قلبك، لأن الحي يؤلمه نقر الإبرة، ولو قطع الميت بالسيوف لم يتألم، فأنت حينئذ ميت القلب.

فاجلس مجلس الحكمة ففيه نفحة من نفحات الجنة تجدها في طريقك وفي دارك وفي بيتك. فلا يفتك المجلس ولو كنت على معصية فلا تقل: ما الفائدة في حضور المجلس وأنا أعصي ولا أقدر على ترك المعصية؟ بل على الرامي أن يرمي، فإن لم يأخذ اليوم يأخذ غدًا.

طريق التوبة

اعلم يا هذا، إياك والمعصية، فقد تكون سببا لتوقف الرزق، فاطلب من الله التوبة، فإن

قُبِلَتْ وإلا فاستغِثْ بالله وقُلْ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ولا تكن كمن أتى عليه أربعون سَنَةً ولم تَقرع بابَ الله قط.

وأكثر ما يخاف عليك سوء الخاتمة، والعياذ بالله تعالى، بسبب إطفاء جمرة الإيمان بسواد العِصْيان، وهي الذنب على الذنب حتى يَسْودّ القلبُ من غير توبة.

إياك أن تتهاون في أعمالك وتختار الطيِّبات لمِرْحاضك، واحذر نفسك التي بين جَنْبَيك فهي التي تحطب عَليك ثم لا تُفارق صاحبها إلى المَمات والشيطان يفارق في رمضان لأنه تُغل فيه الشياطين. وربما تجد مَن يَقتل فيه ويَسرِق، فهذا من النفس. فإذا مالت إلى المعصية فذكِّرها بعذاب الله والقطيعةِ عن الله بسببه.

العَسَلُ المسمومُ يُترَك مع العلم بحلاوته، لما فيه من وجود الأذى لقوله ﷺ: «الدنيا حلوة خضرة». ويروى أيضا: «جيفة قذرة». حلوة خضرة عند أهل الغفلة، وجيفة قذرة عند العقلاء، حلوة خضرة عند النفوس، وجيفة قذرة عند مرائي القلوب، حلوة خضرة للتحذير، وجيفة قذرة للتنفير، فلا تخدعنّكم بحلاوتها فإن عاقبتها مُرَّة.

إذا قيل لك: مَن المؤمن؟ فقل: الذي اطلع على عيب نفسه ولم ينسب أحدًا من العباد إلى عيب، وإذا قيل لك: مَن المخذول؟ فقل: الذي ينسب العِبادَ إلى العيب ويُبري نفسَهُ منه. ومما تمادى عليه أهل الزمان مُباسطتهم ومؤانستهم للعاصين ولو أنهم عبسوا في وجوههم لكان ذلك زجرًا لهم عن المعصية. فلو فُتح لك بابُ الكمال لما رجعت إلى الرذائل، أرأيتَ مَن فُتح له بابُ القصور هل يرجع إلى المَزابل؟. لو فتح لك بابُ الأنس بينك وبينه ما طلبتَ مَن تأنسُ به، لو اختارك لربُوبيته ما قطعك عنه. لو كرُمْتَ عليه ما رماك لغيره. إذا عزل عنك محبة مخلوق فافرح، فهذا من عنايته بك.

ولا تكون معصيةٌ إلا والذل معها، أفتعصيه ويُعزّك؟ كلا، فقد ربط العز مع الطاعة، والذل مع المعصية، فصارت طاعته نورًا وعزًا وكشف حجاب، وضدها معصية وظلمة وذل وحجاب بينك وبينه، ولكن ما منعك من الشهود إلا عدمُ وقوفك مع الحدود، واشتغالك بهذا الوجود.

إذا عصى ولدك فأدِّبه بالشرع، ولا تقطعْهُ، بل قابلْهُ بالعُبوسة ليكف عن المعصية. وأكثر ما يدخل على المؤمن الدَخْلُ إذا كان عاصيًا، فإما أن يَفضحوه وإما أن يستهزئوا به، فإذا فعلوا ذلك فقد أخطأوا الطريق. إذا عصى المؤمن فقد وقع في ورطة عظيمة، وطريقهُ أن تفعل معه كما

فعلتَ مع ولدك عند عصيانه، تُعرِض عنه في الظاهر وتكون له راحمًا في الباطن وتطلب له الدعاء بالغيب.

الحسد

كفى بك جهلًا أن تحسُدَ أهلَ الدنيا على ما أُعطُوا، وتُشغِل قلبَك بما عندهم، فتكون أجهلَ منهم، لأنهم اشتغلوا بما أُعطوا واشتغلتَ أنت بما لم تُعطَ. ترمَدُ عينُك فتُعالجها، وما سبب ذلك إلا أنك ذُقتَ بها لذة الدنيا، فتعالجها حتى لا يفوتك النظر إلى مُستحسَناتها، وترمَدُ بصيرتك أربعين سنة فلا تعالجها؟.

[واعلم] أن عُمرًا ضُيِّع أوّله حريٌّ أن يُحفَظ آخره، كامرأة كان لها عشرة أولاد مات منهم تسعة وبقي واحد، أليست تردّ وُجدَها على ذلك الواحد؟ وأنت قد ضيّعت أكثر عُمرك فاحفظ بقيته، وهي صُبابة يسيرة. واللهِ ما عُمرك من أول يوم وُلدتَ، بل عُمرك من أول يوم عرفتَ الله تعالى.

أهلُ السعادة وأهل الشقاوة

شتّانَ بيْن أهل السعادة وأهل الشقاوة؛ فأهل السعادة: إذا رأوا إنسانًا على معصية أنكروا عليه في الظاهر، ودَعَوا له في الباطن. وأهلُ الشقاوة: يُنكِرون عليه تشفّيًا فيه، وربما ثلَموا عليه عِرضه. فالمؤمن من كان ناصحًا لأخيه في الخلوة، ساترًا له في الجلوة، وأهلُ الشقاوة بالعكس؛ إذا رأوا إنسانًا على معصية أغلقوا عليه الباب وفضحوه فيها، فهؤلاء لا تنوّر بصائرهم، وهم عند الله مُبعدون.

وإذا أردْتَ أن تختبر عقلَ الرجل فانظرْ إليه إذا ذكرت له شخصًا، فإن وجدته يطوفُ على مَحمِل سُوءٍ حتى يقول: خلِّنا منه ذاك فعلَ كذا وكذا، فاعلم أن باطنه خراب وليس له معرفة؛ وإذا رأيته يذكره بخير أو يُذكر له ما يوصف بالذم ويحمله على مَحمَل حَسَن ويقول: لعلّه سَهَا أو له عذر أو ما أشبه ذلك، فاعلَم أن باطنه معمور. فإن المؤمن يعمل على سلامة عِرض أخيه المسلِم.

حقيقة طُول العُمر

من قارَب فراغَ عُمره ويريد أن يستدرك ما فاته فليذكر بالأذكار الجامعة، فإنه إذا فعل ذلك

صار العمرُ القصيرُ طويلًا كقوله: «سبحان الله العظيم وبحمده عددَ خَلْقه ورضا نفسه وزِنَةَ عَرْشِهِ ومداد كلماته». وكذلك مَن فاته الصيام والقيام أن يُشغِل نفسَه بالصلاة على رسول الله ﷺ فإنك لو فعلتَ في جميع عمرك كل طاعةٍ ثم صلى اللهُ عليك صلاةً واحدة رجحت تلك الصلاة الواحدة على كلِّ ما عمِلته في عمرك كله من جميع الطاعات، لأنك تصلي على قدر وُسعك وهو يُصلي على حسب رُبوبيته. هذا إذا كانت صلاةً واحدةً، فكيف إذا صلى عليك عشرا بكل صلاة؟ كما جاء بالحديث الصحيح. فما أحسنَ العيشَ إذا أطعتَ الله فيه بذكرِ اللهِ تعالى أو الصلاةِ على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ويُروى أنه ما من صَيدٍ يُصاد، ولا شجرةٍ تُقطع إلا بغفلتها عن ذكرِ الله تعالى، لأن السارق لا يَسرق بيتا وأهله أيقاظ، بل على غفلةٍ أو نوم.

المسارعة في تحصيل الزاد

من علِمَ قُربَ رحيله أسرعَ في تحصيل الزاد، ومن علم أن إحسانَ غيرِه لا ينفعه جدَّ في الإحسان، ومن أخرج ولم يحسب خسِر ولم يدرِ، ومن وكّل وكيلا واطلع على خيانته عزلَه، كذلك نفسك قد اطلعت على خيانتها فاعزلها وضيّق عليها المسالك.

إذا رأيتَ فيكَ الإعراض والشهوة والغفلة فهذا وصفُك، وإذا رأيتَ فيك الإنابة والخشية والزُهد فهذا من صنائع الله. مثال ذلك: إذا رأيت ببلادك الحَلْفاءَ والشوك والعَوْسَجَ فهذا نبات أرضِ بلدك، وإذا رأيت بها العُودَ الرطبَ والمِسكَ والعنبرَ فاعلَمْ أنه مجلوب من صنائع الله ليس من نَباتِ أرضِك، فالمسك من غزلانِ عراقها، والعنبرُ من بحر هندها.

المعصية مُكدِّرة للإيمان

مثالُ الإيمانِ معَكَ إذا عَصَيْتَ الله تعالى كالشمس المكسوفة، أو كالسراج إذا غَطَّيْتَه بصَحْفةٍ، هو موجود ولكن يَمنع نورَه الغطاءُ. ثم إنك تحضر المجلس في الجامع ليتوفر عقلك، وإن كان عمرك قليلًا يَصير كثيرا لحصول الإيمانِ والخشوعِ والخضوعِ، والخشيةِ والتدبر والتذكر ونحوها. فلو عرفتَ الإيمان ما قاربْتَ العِصيان. فلا غريمَ أمطلُ من النفس ولا عدوَّ أعظم من الشيطان، ولا معارضَ أقوى من الهوى.

ولا يدفع المددَ الهابطَ مِثْلُ الكِبر، لأن الغيثَ لا يقرّ إلا على الأرض المُنْخفِضَة لا فوق رؤوس

الجبال، فكذلك قلوبُ المتكبّرين تنتقل عنها الرحْمة وتنزلُ إلى قلوب المُتواضعين. والمراد بالمتكبرين: مَن يرُدّ الحَق، لا من يكون ثوبُه حَسَنًا، ولكن الكِبرُ بَطَرُ الحق يعني دفعه واحتقارَ الناس. ولا تعتقدْ أن الكبرَ لا يكون إلا في وزير أو صَاحِبَ دنيا، بل قد يكون فيمن لا يملك عشاء ليلة، وهو يُفسِدُ ولا يُصلِحُ لأنه تكَبّرَ على خلق الله تعالى. ولا تعتقد أن المنكوب مَنْ كان في الأسْر، أو في السجن بل المنكوب مَنْ عَصَى الله وأدخَلَ في هذه المملكة الطاهرة نجاسة المعصية.

حقيقةُ الفرَح

كثيرٌ مَن أنفقَ الدنانيرَ والدراهمَ، ولكنَّ مَنْ أنفق الروحَ قليلٌ. الأحمقُ مَنْ مَاتَ ولده وجعل يبكي عليه ولا يبكي على ما فاته من الله عز وجل، فكأنه يقول بلسان حاله: أنا أبكي على ما كان يشغلني عن رَبّي، بل كان ينبغي له الفرحُ بذلك، وَيُقبِلَ على مَوْلاه لأنه أخذ منه مَا كان يشغله عنه. وقبيحٌ بك أن تشيب وأنتَ طفلُ العقلِ صغيرُه، ولا تفهم مُراد الله منك. فإن كنتَ عاقلاً فابكِ على نفسك قبل أن يُبكى عليك، فإن الولدَ والزوجة والخادمَ والصديقَ لا يبكون عليك إذا مُتَّ، بل يَبكون على ما فاتهم منك، فسابقهم أنت بالبكاء وقل: يحِقُّ لي أن أبكي على فوات حظّي من ربي قبل أن يبكوا عليّ.

الوَفاءُ في المعامَلة مع الله تعالى

كفي بك جهلاً أن يُعاملك مَولاك بالوفاء، وأنتَ تعامِله بالجفاء. ليس الرجُل مَنْ صاح بين الناس في المجالس، إنما الرجلُ من صَاح على نفسه وردّها إلى الله تعالى، مَن عَالَ هَمّ الدنيا وترك هَمّ الآخرة كان كمن جاءه أسد يفترسه ثم قرصه برغوث، فاشتغل به عن الأسد، فإن من غفل عن الله اشتغل بالحقير، ومن لم يغفل عنه لم يشتغل إلا به. فأحسنُ أحوالك أن تفوتك الدنيا لتحصيل الآخرة. يا طالمَا فاتتك الآخرة لتحصيل الدنيا. ما أقبح الخوفَ بالجُندِيّ، وما أقبحَ اللحن بالنحْويّ! وما أقبحَ طلبَ الدنيا لمن يُظهِر الزهدَ فيها. ليس الرجلُ مَنْ يُربّيك لفظه، إنما الرجل من يُربيك لحظُه.

عن الشيخ أبي العباس المُرسيّ ﷺ أنه قال: إذا كانت السُلحفاة تُربي أفراخها بالنظر، كذلك الشيخ يُربيّ مريده بالنظر، لأنّ السلحفاة تبيض في البر، وتتوجه إلى جانب النهر، وتنظر إلى

يَبيضها، فيُربِّيهم الله بنظرها إليهم.

حلاوة محبة الله

إياك أن تخرج من هذه الدار وما ذقت حلاوة حبه. ليس حلاوة حبه في المآكل والمشارب، لأنه يشاركك فيها الكافر والدابة، بل شارك الملائكة في حلاوة الذكر والجمع على الله تعالى، لأن الأرواح لا تحتمل رشاش النفوس، فإذا انغمست في جيفة الدنيا لا تصلح للمحاضرة، لأن حضرة الله تعالى لا يدخلها المتلطخون بنجاسة المعصية، فطهِّر قلبك من العيب يفتح لك باب الغيب، وتب إلى الله وارجع إليه بالإنابة والذكر. ومن أدام قرع الباب يفتح له، ولولا الملاطفة ما قلنا لك ذلك، لأنه كما قالت رابعة العدوية ﵂: متى أغلق هذا الباب حتى يفتح؟!. ولكن يا هذا باب يوصلك إلى قربه.

استحضار القلب بوحدانية الله تعالى

وإياك وذهول القلب عن وحدانية الله تعالى، فأول درجات الذاكرين استحضار وحدانيته تعالى. وما ذكره الذاكرون وفتح عليهم إلا باستحضارهم ذلك، وما طردوا إلا بذكرهم مع غلبة الذهول عليهم. وتستعين على ذلك بقمع الشهوتين: البطن والفرج. ولا يضادك في الله إلا نفسك.

وما أكثر تودّدك للخلق، وما أقل توددك للحق؟ لو فتح لك باب التودد مع الله لرأيت العجائب، ركعتان في جوف الليل تودد، عيادتك للمرضى تودد، صلاتك على الجنائز تودد، الصدقة على المساكين تودد، إعانتك لأخيك المسلم تودد، إماطتك الأذى عن الطريق تودد، ولكن السيف المطروح يحتاج إلى ساعد. ولا عبادة أنفع لك من الذكر، لأنه يمكن الشيخ الكبير والمريض الذي لا يستطيع القيام والركوع والسجود.

طريقة الدخول إلى معرفة الله تعالى

[واعلم] أن العلماء والحكماء يعرفونك كيف تدخل إلى الله تعالى. هل رأيت مملوكاً أول ما يشترى يصلح للخدمة؟ بل يعطى لمن يربيه ويعلمه الأدب، فإن صلح وعرف الأدب قدّمه للملك، كذلك الأولياء رضي الله عنهم يصحبهم المريدون حتى يرجوا بهم إلى الحضرة، كالعوّام إذا أراد أن يعلّم الصبي العوم يحاذيه إلى أن يصلح العوم وحده، فإذا صلح زجه في اللجة وتركه.

وإياك أن تعتقد أن لا يتوسّل بالأنبياء والأولياء والصالحين، فإنهم وسيلة جعلها الله إليه لأنّ كلّ كرامة للولي هي شهادة بصدق النبي عليه الصلاة والسلام، لأنها جرت على أيدي الأولياء مثل خرق العادات، والمشي على الماء، والطيران في الهواء، وإخبار المغيبات ونبع الماء ونحو ذلك لأنهم لم يعطوا ذلك إلا لأجلهم.

مُحاسبَةُ النفس

عن الشيخ أبي الحسَن الشاذلي ﷺ أنه قال: كِلْ نفسكَ وزِنها بالصلاة، فإن انتهَتْ عن الحظوظ فاعلَمْ أنك سُعِدْتَ، وإلا فابكِ على نفسك إذا جَررت رِجلَكَ إلى الصلاة جرا، فهل رأيت حبيبًا لا يُريدُ لقاء حبيبه؟ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾. فمن أراد أن يعرف حقيقته عند الله، وينظرَ حالَه معه، فلينظرْ إلى صلاته؛ إما بالسكون والخشوع، وإما بالغفلة والعَجلة.

فإن لم تكن بالوصفين السابقَين فاحثُ الترابَ على رأسك، فإن مَن جالس صاحب المسك عبَق عليه مَن ريحه، فإن الصلاة مجالسة الله تعالى، فإذا جالسته ولم يحصل لك منه شيء دل ذلك على مَرضٍ فيك، وهو إما كِبرٌ أو عُجبٌ أو عَدمُ أدبٍ، قال الله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ فلا ينبغي لمن صَلّى أن يُسرِع الخروجَ بل يذكر الله تعالى ويستغفره من تقصيره فيها، فرُبَّ صلاةٍ لا تصلحُ للقبول فإن استغفرتَ الله بعدها قُبلت، كان النبي عليه الصلاة والسلام إذا صلى استغفر الله ثلاث مرات.

النهيُ عن الشك في الله تعالى

كَمْ فيكَ من الكوامن فإذا أُوردَت عليها الوارداتُ أظهرَتْها، وأعظمها ذنبًا: الشك في الله، والشك في الرزق شك في الرازق. الدنية أحقرُ من أن يُعالِ همَّها. صَغُرتْ الهمم فعالت صَغيرا، فلو كنت كبيرًا لعُلتَ الكبيرَ. مَن عال الهمَّ الصَغير وترك الهمّ الكبير استسفلنا عَقله.

قُم أنت بما يلزمكَ مِن وظائف العبودية، وهو يقومُ لك بما التزمه. أيرزقُ الجُعل والوزغ وبنات وِردان وينسى أن يرزقك؟ قال الله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾. كل مَن كان مُراعيًا لحق الله تعالى، لا يُحدِثُ الله حدثا في المملكة إلا أعلمه.

نظر بعضهم إلى بعض جماعة فقال: هل فيكم من إذا أحدث الله ﷻ في المملكة حدثا أعلمه؟ قالوا: لا. فقال لهم: أبكوا على أنفسكم.

كان المتقدمون من السلف ﷺ يسألون الشخص عن حاله ليستثيروا منه الشكر، والناس اليوم ينبغي أن لا يسألوا فإنك إن سألت تستثير منهم الشكوى. عن بعض النباشين: أنه تاب إلى الله تعالى، فقال يوماً لشيخه: يا سيدي، نبشت ألف قبر، فوجدت وجوههم محولة عن القبلة. فقال الشيخ: يا ولدي، ذلك من شكهم في رزقهم.

معظم السؤال من الله

يا عبد الله، إذا طلبت من الله فاطلب منه أن يصلحك من كل الوجوه، وأن يصلحك بالرضى عنه في تدبيره لك. ثم إنك عبد شرود طلب منك أن تعبر إليه ففررت منه، فإن الفرار يكون بالأفعال والأحوال والهمم. فإذا كنت في صلاتك تسهو وفي صومك تلغو وفي لطف الله تشكو، فأنت شارد.

عن الشيخ أبي الحسن الشاذلي ﷺ أنه قال: بقيت مرة في البادية ثلاثة أيام لم يصح لي شيء، فجاز علي بعض النصارى فرأوني متكئا فقال: هذا قسيس من المسلمين، فوضعوا عند رأسي شيئا من الطعام وانصرفوا، فقلت: يا للعجب، كيف رزقت على أيدي الأعداء، ولم أرزق على أيدي الأحباء؟ فقيل: ليس الرجل من يرزق على أيدي الأحباء، إنما الرجل من يرزق على يد أعدائه.

يا هذا، اجعل نفسك كدابتك، كلما عدلت عن الطريق ضربتها فرجعت إلى الطريق، ولو فعلت مع نفسك مثل ما تفعل بجبتك كلما توسخت غسلتها وكلما تقطع منها شيء رقعته وجددته، كانت لك السعادة. فرب رجل ابيضت لحيته وما جلس مع الله جلسة يحاسب نفسه فيها. عن الشيخ مكين الدين الأسمر ﷺ أنه قال: كنت في البداءة أحاسب نفسي عند المساء فأقول: تكلمت اليوم بكذا وكذا، فأجد ثلاث كلمات أو أربعا. وكان عنده يوما شيخ عمره نحو تسعين سنة، فقال له: يا سيدي أشكو إليك كثرة الذنوب. فقال الشيخ: هذا شيء لا نعرفه وما أعرف أني عملت ذنبا قط.

أبناء الدنيا وأبناء الآخرة

كما أن للدنيا أبناء ممن استند إليهم كفوه، فكذلك أن للآخرة أبناء من استند إليهم أغنوه.

ولا تقل: طلبْنا فلم نجد، فلو طَلَبْتَ بصدق لوجَدْتَ. وسَبَبُ عدم وُجدانك عدم استعدادك، فإن العروس لا تجلى على فاجر، فلو طلبْتَ رُؤية العَرُوس لتركت الفجور، ولو تركت الفجور لرأيت الأولياء، والأولياء كثيرون، لا ينقص عددهم ولا مَدَدهم، ولو نقص واحد منهم لنقص نور النبوة. إذا أحبَبْتَ حَبيباً لن تصِل إليه حتى تكون أهلاً للوصول إليه، وكذلك حتى تتطهَّر مما أنت فيه من الرذائل. قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: أولياءُ الله عرائس، والعَرائس لا يراها المجرمون.

صِدْقُ التوبة

إذا ثَقُلَت عليك الطاعة والعبادة، ولم تجدْ لها حلاوةً في قلبك، وتخفّ عليك المعصية، وتجدُ لها حَلاوة، فاعلم أنك لم تَصدُق في توبتك، فإنه لو صَحَّ الأصلُ لصح الفرع. ليتك لو أطعت مولاك كما يُطيعك عَبدك، فإنك تُحبه ناهضاً في خدمتك دائما، وأنت تُحب الطاعة وتطلب أن تفرغ منها مُسْرِعا، كأنك تَنقر بالمناقير. فيا ليت بَصَرًا نظرت به محاسن الغير عُوِّضتَ عنه العمى. كم حَصَل لك الهوان بالوقوف على أبواب المخلوقين، وكم أهانوك وأنت لا ترجع إلى مولاك.

عن الشيخ مَكين الدين الأسمر ﷺ أنه قال: رأيتُ في المنام حُورِيَّة وهي تقول: أنا لك وأنت لي. قال: فبقيتُ نحوَ شهرين أو ثلاثة أشهر لا أستطيع لمخلوقٍ كلاماً إلا تقيَّأت لطيب كلامها.

كفاك من الإدبار أن تفتح عينَيْك في هذا الدار، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾. قدّر لك الصحة والمرض والغنى والفقر والفرح والحزن، حتى تعرفه بأوصافه.

من صَحِبَك يوماً أو يومَين، ولم يَرَ منك نفعاً تركك وصَحِب غيرك، وأنت تصحَبُ نفسك أربعين سَنة ولم تر منها نفعاً فقل لها: ارجعي يا نفسُ إلى رضا ربك، طالَمَا وافقتُكِ في الشهوات، فتبدّلي بُعد البَطالة بالاشتغال بالله وبعد الكلام بالصمت، وبعد الوقوف بالحارات الجلوس بالخلوة، وبعدَ الأنس بالمخلوقين الأنس بالخالق، وبعد قُرناء السوء مُعاشرة أهل الخير والصلاح. اجعل أحوالك على ضِدّ ما كنت عليه، اجعل بدل السهر في معصية الله السهر في طاعة الله، وبعد الإقبال على أهل الدنيا الإعراض عنهم والإقبال على الله، وبعد الإصغاء لكلامهم الإصغاء والاستماع لكلام الله عزّ وجل وذِكره، وبعد الأكل بالشره والشهوة الأكل القليل الذي يُعينك على الطاعة. قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾.

سببُ المعصيةِ

إنما عَصَى اللهَ مَن لم يعرفْ عِقابَه، وإنما ترك طاعةَ اللهِ مَن لم يعرفْ ثوابَه. فلو اطّلعوا على عذاب اللهِ لما غفلوا، ولو اطلعوا على ما أعدَّ اللهُ لأهل الجنة لما تركوها طرفةَ عينٍ.

إذا صَحِبْتَ أبناءَ الدنيا تجذبُوكَ إليها، وإذا صَحِبتَ أبناءَ الآخرة تجذبوكَ إلى الله. قال رسول الله ﷺ: «يحشر المرءُ على دِينِ خليله، فلينظر أحدُكم لمن يخالل». كما تختار لنفسك المآكل الطيّبةَ التي لا ضَرَرَ فيها، والزوجةَ الحسناءَ لتتزوّجها، فكذلكَ لا تُوادِدْ إلا مَنْ يُعرّفك الطرقَ إلى الله ﷻ.

واعلم أن لك ثلاثةَ أخلّاء:

أحدها: المال، تفقده عند الموت.

الثاني: العِيَال، يتركونك عند القبر.

الثالث: عمَلُك، لا يفارقك أبدًا.

فاصحَبْ مَن يدخُل معك قبرَك وتأنّس به. فالعاقل من عقل عن الله وأوامره ونواهيه.

مثالك، كالجُعَل يعيّش في الروث والعَذِرَة، وإذا قُرّب إليه الوَرْدُ ماتَ من رائحته. فمِنَ الناسِ من هو جُعَلِيّ الهمة، فراشِيّ العقل، فإن الفَراش لا يزال يرمي نفسَه في النار حتى تحرقه، فكذلكَ أنتَ ترمي نفسَك في نار المعصية عمدًا.

فلو أردت السَّيْرَ إلى الله تعالى شددْتَ المِحزَمَ، فأين الهمة. إنما تأكل لتَعيشَ ولا تعيشُ لتأكل، فإن فعلتَ ذلك فمثالك على المداود كثير، ومثلك في الدواب كثير، فإن فعلت ذلك فإنّ أسبقَ الخيْلِ ما ضمر. تقول هذه الليلة: أقلِّلُ الأكلَ، فإذا حضر الطعام فكأنه حبيبٌ مفارق. ومن لم يُرِدِ اللهُ صلاحه تعِبَت فيه الأقاويل، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾. ما أهربَك من الهوان، وما أوقعك فيه؟، تُهينُ نفسَك وتُلقيها في مواطن الردَى. قال بعضهم: كُن مع الله كالطفل مع أمه، كلما دفعته أمه ترامَى عليها لا يَعرِف غيرها.

هَلْ مِن مُشترٍ لسِلْعَتِنا

يا عبدَ الله، تَنتَخِبُ لنفسك الطيّباتِ، بل تنتخبُ لدابّتك العلفَ، وتُعامِلُ اللهَ بالمجازَفةِ. وربما قلّبت عشرين بطيخةً حتى تصلح لكَ واحدةٌ لدِهْلِيز مِرْحاضٍ. وتقعُدُ عند الأكل متربّعًا ورُبّما طوّلْتَ في الأكل، وإذا جئتَ إلى الصلاة نقرْتَها نقرَ الديك، والوساوِس والخواطر الرديئة

تأتيك في صلاتك. مِثالُ مَنْ هذه حالُه كَمَنْ نصبَ نفسه الهدَفَ وقعَدَ في الأرماحِ والسِهامِ تقصِدُه من كل جانب، أفما هذا أحمَقُ؟

مِثالُك إذا سمعتَ الحِكمةَ ولم تعمَلْ بها كمَثلِ الذي يَلْبَسُ الدرعَ ولا يُقاتلُ. ألا، فقدْ حصلَ النداءُ على سِلْعَتِنا فهل مِنْ مُشترٍ؟ قيمتُكَ قيمةُ ما أنتَ مشغولٌ به، فإنِ اشتغلتَ بالدنيا فلا قيمةَ لك، لأن الدنيا كالجيفة لا قيمة لها.

أفضلُ ما يطلُبُ العبدُ من الله أن يكونَ مستقيمًا معه، قال الله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. فاطلب منه الهِدايةَ والاستقامةَ، وهو أن تكون مع الله في كل حَالٍ بالذي يَرضاه لكَ، وهو ما جاء به النبيُّ ﷺ عن الله ﷻ.

جزاءُ الوُدِّ لله

من بذَلَ لله صِرْفَ الوُدِّ سقاه اللهُ صِرْفَ الكَرَم. مِثالُ السالكِ كَمَن يحفِرُ على الماء قليلاً حتى يجدَ الثقبَ فينبعُ له الماءُ بعد الطَلَبِ. ومِثالُ المجذوبِ كمن أردا الماءَ فأمطرتْ له سَحَابة، فأخذَ منها ما يحتاجُ إليهِ من غير تعَبٍ.

إذا أعطيتَ نفسَكَ كلَّما تشتهي وتطلُبُ من الشهَوات كنتَ كمن في بيته حَيَّةٌ يُسَمِّنُهَا كلَّ يوم حتى تقتلَه. ولو جعلَ اللهُ فيكَ الرُوحَ من غير نفسٍ لأطعْتَ وما عصيتَ، ولو جعل فيك النفسَ من غير رُوحٍ لعَصَيْتَ وما أطعتَ فلذلك جعل فيكَ القلبَ والروحَ والنفسَ والهوَى كالنحلة جُعِلَ فيها اللسْعَةَ والعسلَ؛ فلذلك تتلَوَّنُ، فالعسلُ ببرِّه، واللَّسْعُ بقهره، فأرادَ اللهُ أن يكسِرَ دعوى النفسِ بوجودِ القلبِ ودعوى القلبِ بوجودِ النفسِ.

حقيقة العبودية

يا عبدَ الله، طلَبَ من أن تكونَ له عُبدًا فأبيتَ أن تكونَ إلا ضِدًّا، إقبالك على الله إفرادُك له بالعبادة، فكيف يَرضَى لك أن تعبُدَ غيرَه؟ فلو أتيتَنا تطلُبُ العطاءَ منَّا ما أنصَفْتَنا، فكيف ترضى إذا أقبلتَ على مَنْ سِوانا؟

وقفتَ الدنيا في طريق الآخرة، فصرفت الوُصُولَ إليها، ووقفت الآخرةَ في طريق الحق فمُنعت الوصولَ إليه. إنَّ مِن لُطفِ الله بك أن يكشِفَ لك عن عيُوبِ نفسك ويستُرَهَا عن النّاس. إذا أُعطيتَ الدنيا ومُنعت الشُكرَ فيها فهي محنةٌ في حقك، قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم:

«قليل الدنيا يُلهي عن طريق الآخرة».

كان لبعضهم زوجة فقالت له يومًا: لا أقدرُ على أن تغيب عني ولا أن تشتغل بغيري، فنودي: إذا كانت هذه لا خالقةً ولا موجدةً وهي تحبّ أن تجمع قلبك عليها، فكيف لا أحبّ أنا أن تجمع قلبك علي؟

كنت مرة عند الشيخ أبي العباس المُرسِيّ رضي الله تعالى عنه فقلتُ في نفسي أشياء، فقال الشيخ: إن كانت النفس لكَ فاصنعْ بها ما شئتَ، ولن تستطيع ذلك. ثم قال: النفس كالمرأة، كلما أكثرتَ خصامها أكثرتْ خصامك، فسلّمْها إلى ربّها يفعل بها ما يشاء، فربما تعبتَ في تربيتها فلا تنقادُ لك. فالمسلِم من أسلم نفسَه إلى الله بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾.

إذا أحبّك مولاك أعرض عنك أصحابك حتى لا تشتغِل بهم عنه، وقطَع علائقك من المخلوقين حتى ترجعَ إليه. كم تطلُبُ نفسَكَ إلى الطاعة وهي تتقاعَدُ. إنما تحتاج إلى معالجة نفسك في الابتداء، فإذا ذاقت المنة جاءت اختيارًا، فالحلاوة التي تجدها في المعصية ترجعُ تجدُها في الطاعة.

الإيمان كالشجرة الخضراء

مثالُ الإيمان في القلب كالشجرة الخضراء، فإذا كثُرَتْ عليها المعاصي يبسَت وفرَغ أمدادُها.

فمن أحبّ القيام بالواجبات فليترك المحرّمات، ومنْ ترك المكروهات أُعينَ على تحصيل الخيرات، ومن ترك المباحات وسّع عليه توسعةً لا يسعُها عقلُه، وأباح له حضرته، ومن ترك استماع ما حُرم عليه قلّ كلامُه، ولكن ما أهونَ الغرابة التي فيها هوى نفسك عليك، وما أثقل ما ليس فيه هوى. مثاله أن تحجّ تنفلا، فإن قيل لك: تصدّق بذلك، فإن قيل لك: تصدّق بذلك، شقّ عليك لأنّ أمرَ الحجِ يُرى، فللنفس فيه حظ، والصدقة تطوى وتُنسى.

وكذلك درسُك العلمَ لغير الله، فإنك تدرُسُ الليلَ كله ونفسك طيّبة بذلك، فإذا قيل لك: صلِّ بالليل ركعتين، شق ذلك عليك لأنّ الركعتين بينك وبين الله تعالى ليس فيهما للنفس حظ، والقراءة والدرسُ للنفس فيهما حظ مشاركة للناس، فلأجل ذلك خُفف عليهما.

قال بعضهم: تاقت نفسي إلى الزواج فرأيت المحراب قد انشق وخرج منه نعل من ذهب مكلّل باللؤلؤ، فقيل لي: هذا نعْلها فكيف وجهها، فانقطعت شهوة النكاح من قلبي.

إخفاءُ الأعمال

من هُيئت له المنازل لم يُرضَ له بالقعود على المزابل. فاعمَلْ الأعمالَ الصالحاتِ بينك وبين الله سِرًّا ولا تُطلِع عليه أهلك، واجعله مُدَّخرًا عند الله تجده يومَ القيامة، فإن النفسَ لها تمتع بذكر العمل. صام بعضُهم أربعين سَنَةً ولم يعلم به أهلُه.

لا تُنفق أنفاسَك في غير طاعةِ الله، ولا تنظرْ إلى صغيرِ النفَسِ بل انظرْ إلى مقداره وإلى ما يُعطي اللهُ العبدَ. فالأنفاس جواهر، وهل رأيتَ أحدًا يرمي جَوهرة على مَزبَلة؟ أفتُصلح ظاهرَك وتُفسد باطنك؟ فمِثالك كالمجذوم لبِسَ ثيابًا جديدة، ويخرج منه في الباطن القيح والصديد، فأنت تُصلِح ما ينظر إليه الناسُ، ولا تُصلح قلبك الذي هو لربك.

الحكمةُ كالقيد

الحكمة كالقَيْد، إن قيّدتَ بها نفسَك امتنعت، وإن رميتها تسيّبت ويُخاف عليك. مِثال ذلك كالمجنون في بيتك يُخرّبه ويُقطّعُ الثيابَ، فإذا قيدته استرحت وإذا طرحتَ القيد وخرجت فالضرر باقٍ.

يا أيها الشيخُ، قد أفنيتَ عمرك فاستدْرِك ما فاتك، قد لَبِستَ البَياض وهو الشَيب، والبَياض لا يَحمِل الدنس. مثال القلب كالمرآة، ومثال النفسِ كالنفس كلما تنفستَ النفسَ على المرآة تسودت. قلبُ الفاجر كمرآة العَجُوزِ التي ضَعُفت همتها أن تجلوها وتنظر فيها. وقلب العارف كمرآة العَرُوسِ كلّ يومٍ تنظر فيها فلا تزالُ مصقولة.

همة الزاهدين في كثرة الأعمال، وهمّة العارفين في تصحيح الأحوال.

طُريقةُ جَلاء القَلْب

أربعةٌ تُعينك على جَلاء قلبك: كثرة الذِكر، ولزومُ الصَّمتِ، والخلوةُ، وقلّة المَطعَم والمَشرَب.

أهل الغفلة إذا أصبحُوا يَتفقدون أموالَهم، وأهل الزهد والعبادة يتفقدون أحوالَهم، وأهل المعرفة يتفقدون قلوبهم مع الله عز وجل.

ما مِن نفسٍ يُبدِيه الله تعالى فيك مِن طَاعةٍ أو مَرَضٍ أو فاقةٍ إلا وهو يريدُ أن يختبرك بذلك.

ومن طلب الدنيا بطريق الآخرة كان كمن أخذ مِلعقة ياقوتٍ يَغرِف بها العذرة، أفما يُعدُّ هذا أحمقَ؟ لا تعتقد أن الناس فاتهم العلمُ، بل فاتهم التوفيقُ أكثر من العلم.

أول ما ينبغي لكَ أن تبكيَ على عقلك، فكما يقعُ القحطُ في الكـلأ يقع في عقول الرجال. وبالعقل عاش النّاس مع الناس ومع الله تعالى؛ مع الناس بحُسن الخُلق، ومع الله باتباع مرضاته.

إنْ مَنّ عليك بثلاثةٍ فقد مَنّ عليك بالنعمة الكُبرى:

الأولى: الوقوف على حدوده،

الثانية: الوفاء بعهوده،

الثالثة: الغرق في شهوده.

وما سببُ استغرابك لأحوال العارفين إلاّ استغراقُك في القطيعة. ولو شاركتهم في الأسفار لشاركتهم في الأخبار، ولو شاركتهم في العنا لشاركتهم في الهنا.

ما شأن نفسك وقتَ الرّضا إلا كالبعير المعقول، فإذا سيّبته انطلق، قال رسول الله ﷺ: «القلب ابن آدم أشدّ تقلبًا من القِدر على النار إذا غلت».

فكم مَن كان في جمع مع الله أتته الفُرقة في نفس واحد، وكم مَن بات في طاعة الله ثمّ ما طلعت عليه الشمس حتى دخل في القطيعة. فالقلبُ بمثابة العين، والعين لا ترى بها كلها، بل بمقدار العَدَسة منها. وكذلك القلبُ لا يراد منه اللحمانية، بل اللطيفةُ التي أودعها الله فيه وهي المُدركة. وجعل الله القلبَ معلّقاً في الجانب الأيسر كالدلو، فإن هبّ عليه هوى الشهوة حرّكه، وإن هبّ عليه خاطر التقوى حرّكه، فتارة يغلب عليه خاطر الهوى، وتارة يغلبُ عليه خاطر التقى، حتى يُعرّفك مرةً مَنّه ومرة قهره. فمرة يُغلب عليه خاطر التقى ليمدَحك، ومرة يُغلب عليه خاطر الهوى ليذمّك.

فالقلبُ بمثابة السقف، فإذا أُوقد في البيت نارٌ صعد الدُخانُ إلى السقف فسوّده، فكذلك دُخان الشهوة إذا نبت في البدن صَعد دُخانه إلى القلب فسوّده.

إذا ظلمك الغويّ فارجعْ إلى القوي، ولا تخفْ منه فيُسلّط عليك. مثال مَنْ يشهدُ الضرَرَ من المخلوقين كمن ضرب الكلبَ بحجر، فاقبل الكلبُ على الحجر يَعضّه ولا يعرف أن الحجرَ ليس بفاعل، فيكون هو والكلبُ سَواء.

مَثَلُ الإحسان

مِثالُ مَنْ يَشهدُ الإحسان من المخلوقين كالدّابة إذا رأت سائسها بَصْبَصَتْ ويدنو إليها مالكُها فلا تُلقي إليهِ بالًا. فإن كنتَ عاقلا فاشهد الأشياء من الله عز وجل ولا تشهدْها من غيره.

ليس التائه من تاه في البريّة، بل التائه من تاه عن سبيل الهُدى. تطلب العزّ من الناس، ولا تطلبه من الله، فمن طلبه من الناس فقد أخطأ الطريق، ومن أخطأ الطريق لم يزده سيره إلا بُعداً، فهذا هو التائه حقاً.

إذا قلت: لا إله إلا الله، طالبك الله بها وبحقّها، وهو أن لا تنسب الأشياء إلا إليه. مثال القلب إذا سلّمته إلى النفس كمن تعلق بغريق فغرق كل واحد منهما، ومثال النفس إذا سلّمتها للقلب كمن أسلم نفسه إلى عوّام قويّ فسلّمها له، فلا تكن ممن أسلم قلبه إلى نفسه، فهل رأيت بصيراً قلّد نفسه إلى أعمى يقوده؟

إن أمكنك أن تُصبح وتُمسي وما ظلمتَ أحداً من العباد فأنت سعيد، فإن لم تظلم نفسك فيما بينك وبين الله فقد تكمّلت لك السعادة، فأغلق عينيك وسُدّ أذنيك، وإياك وإياك وظُلم العباد.

مثالك في صِغر عقلك وكونك لا تعلم ما عليك من الملابس إلا كالمولود تكسوه أمه أحسن الملابس وأفخرها، وهو لا يشعر وربما دنّسها ونجّسها فتسرع إليه أمه وتكسوه أخرى، لئلا يراه الناس كذلك وتغسل ما تنجّس وهو لا يعلم ما فعل به لصِغر عقله.

عن الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه أنه قال: قيل لي: يا علي، طهّر ثيابك من الدنس تحفظ بمَدد الله في كل نفَس. فقلت: وما ثيابي؟ فقيل لي: إن الله كساك حُلة المعرفة ثم حُلة التوحيد حُلة الإيمان ثم حُلة الإسلام، فمن عرف الله صغُر لديه كل شيء، ومن أحبّ الله هان عليه كل شيء، ومن وحّد الله لم يُشرك به شيئاً، ومن آمن بالله أمِن من كل شيء، ومن أسلم لله قلّ ما يَعصيه، وإن عصاه اعتذر إليه، وإن اعتذر إليه قبل عذره. قال: ففهمت من ذلك قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾.

يا مَن عاش وما عاش، تخرج من الدنيا وما ذقت ألذّ شيء فيها وهي مناجاة الحق سبحانه وتعالى ومخاطبته لك، فأنت مُلقى جيفة بالليل. فإن دفعت عنه فاستغث بالله، وقل: يا ملائكة الله ويا رسول ربي، فاتتني الغنيمة التي نالوها من لذة المناجاة ووداد المصافاة.

سبب سُوء الخاتمة

إذا كان العبد مُعجباً بطاعته، متكبّراً على خلقه، ممتلئاً عظمة يطلب من الخلق أن يُوفوا حقوقه، ولا يُوفي حقوقهم، فهذا يخشى عليه سوء الخاتمة، والعياذ بالله. وإن كان إذا فعل معصية

تراه باكياً حزيناً، مُنكسِراً ذليلاً، يتطارحُ على أرجلِ الصالحين ويَزورهم مُعترفاً بالتقصير، فهذا يُرجى له حسنُ الخاتمة.

إذا طلبْتَ قارئاً وجدْتَ ما لا يُحصى، وإذا طلبْتَ طبيباً وجدْتَ كثيراً، وإذا طلبت فقيهاً وجدْتَ مثل ذلك، وإن طلبت من يدلك على الله ويُعرِّفك بعيوب نفسك لم تجد إلا قليلاً، فإن ظفِرت به فأمسِكه بكِلتا يدَيك. إن أردتَ أن تُنصَر فكن كلك ذلة، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾. إن أردتَ أن تُعطى فكن كلك فقراً: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾.

تكون في وسَط النهر وأنت عطشان، تكون معه في الحضرة وأنت تطلب الاتصال. كأنَّ العبادَ لم يتواصلوا للآخرة إلا بكثرة المآكل والمشرب، أو قيل لهم: هذه توصلكم إلى الآخرة، ولكن ما أرخص نفسَك عليك، لولا هوانها عليك ما عرضتَها لعذاب الله تعالى، وما أغلاها في طلب الدنيا وجمعها.

والعجبُ كل العجب فيمن يسأل المنجِّم عن حاله، ولا يسأل كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

إذا ضَعفتَ عن العبادة فرقِّع عبادتك بالبكاء والتضرع. وإذا قيل لك: من يُبكي عليه؟ فقل: عبدٌ عُوفي فأنفق عافيته في معصية الله.

إذا نمتَ على تخليط رأيتَ التخليط في منامك، بل ينبغي لك أن تنام على طهارة وتوبة، فيفاتح قلبك بنوره. ولكن من كان في نهاره لاغياً، كان في ليله عن الله ساهياً. إذا رأيت وليّاً لله تعالى فلا يمنعك إجلالُه من أن تقعد بين يديه متأدباً وتتبرك به.

[واعلم] أن السماء والأرض لتتأدَّب من الولي كما يتأدب معه بنو آدم. فمن فرح بالدنيا إذا جاءته فلقد ثبت حمقه، وأحمق منه من إذا فاتته حزن عليها. فمثالك كمن جاءته حية لتلدغه، ثم مضت وسلمه الله تعالى منها فحزن عليها أن لم تضره.

من علامات الغفلة وصِغر العقل: أن تعول همّاً هل يقع أو لا، وتترك همّاً لا بد من وقوعه. وتصبح تقول: كيف يكون السعر غداً، وكيف يكون الحال في هذه السنة؟ وألطاف الله تأتي من حيث لا تعلم. والشك في الرزق شك في الرازق، وما سرق السارق وما غصب الغاصب إلا رزقه، فما دمتَ حياً لا ينقص من رزقك شيء.

كفى بك جهلاً أن تعول الهمَّ الصغير، وتترك الهمَّ الكبير. عُل همّ هل تموت مسلماً أو كافراً؟ عُل همّ هل أنت شقي أم سعيد؟ عُلْ همّ النار الموصوفة بالأبدية التي لا انتهاء لها، وعُل همّ أخذ

الكتاب باليمين أو بالشمال؟ هذا هو الهَمُّ الذي يُعال، لا هَمُّ لقمة تأكلها أو شَرْبَة تشربها. أيستخدمُك الملكُ ولا يُطعمك، أتكونُ في دار الضيافة وتُضيع؟.

إنّ أحبَّ ما يُطاعُ اللهُ به الثقة به، لأن تكونَ خاملًا في الدنيا خيرٌ لك من أن تكون خاملًا يوم القيامة. هذه صفاوة العمر وغربلته. يا مَن لا يأكل الحنطة إلا مُغَرْبَلة، لا بد أن يُغَرْبَلَ عملُك فلا يبقى لك إلا ما أخلصت فيه، وما عدا ذلك يُرمى.

آفاتُ المخالطة

أكثرُ ما يُخاف عليك مخالطة النّاس، ولا يكفيك أن تسمع بأذنيك بل تشاركهم في الغيبة، وهي تنقض الوضوء وتفطر الصائم.

كفى بك جهلًا أن تغارَ على زوجتك ولا تغارَ على إيمانك. كفى بك خيانةً أن تغارَ عليها لأجل نفسك ولا تغارُ على قلبك لأجل ربك. إذا كنت تحفظ ممّا هو لك ألا تحفظ ممّا هو لربك.

إذا رأيت مَن يُصبح مهمومًا لأجل الرزق، فاعلم أنه بعيد من الله، فإنه لو قال لك مخلوق: لا تشتغل غدًا بتسبب، وأنا أعطيك خمسة دراهم، وثقت به وهو مخلوق فقير، أفما تكتفي بالغني الكريم الذي ضمن لك رزقك من أجلك؟ أنشد إنسان:

إذا العشرون مِنْ شعبانَ وَلت ... فواصِلْ شُرْبَ ليلك بالنهار
ولا تَشربْ بأقداحٍ صغارٍ ... فقد ضاقَ الزمانُ عن الصِغار

ومعناه عنده: إذا مضت العشرون من شعبان فقد قربَ رمضانُ يقطعُ علينا الشراب. ومعناه عند أهل الطريق: إذا خلفتَ أربعين سَنة وراء ظهرك فواصِل العمل الصالح بالليل والنهار، لأن الوقت قد قربَ إلى لقاء الله عز وجلّ، فليس عملك كعمل مَن كان شابًا ولم يُضيّع شبابه ونشاطه، وأنت قد ضيعت شبابك ونشاطك.

هب أنك تريدُ الجدّ ولكن لا تساعدك القُوى، فاعمَلْ على قدْرِ حالك وَرَقِّع الباقي بالذكر، فإنه لا شيء أسهل منه يُمكنك في حال القيام والقعود والمرض والاضطجاع. فهذا أسهل العبادات وهي التي قال رسول الله ﷺ: «وليكن لسانك رطبا بذكر الله». وأيّ دعاء أو ذكر سَهُل عليك فواظبْ عليه، فإنّ مددَه مِن الله عزّ وجلّ، فما ذكرته إلا ببرّه، وما أعرضتَ عنه إلا بسطوته وقهره، فاعمل واجتهد، فالغفلة في العمل خير من الغفلة عنه.

ترى نحالك نحال الزاهدين في الفضل، لأنّ الطالبَ لا ينقطعُ عن الأبواب بل تجده واقفًا

عليها، فمثاله كالثكلى التي مات ولدها، أتراها تحضر الأعراس والأفراح والولائم؟ بل هي مشغولة بفقد ولدها.

وكم يرسل لك المولى الصنائع وأنت عبد شرود، فمثالك كالطفل في المهد، كلما حُرِّك نام. ولو أرسل إليك الملك خلعة ما أصبحت إلا على بابه، فاغتنم أوقات الطاعات واصطبر عليها.

إن طلبت أن تعصيه فاطلب مكانا لا يراك فيه أحد، واطلب قوة من غيره تعصيه بها، ولن تستطيع شيئا من ذلك؛ لأن الكل من نعمه. أتأخذ نعمه وتعصيه بها؟ بل تفننت في المخالفات مرة بالغيبة ومرة بالنميمة ومرة بالنظر وما بنيته في سبعين سنة تهدمه في نفس واحد، يا هادم الطاعات.

ما سلط الله عليك الفاقة إلا لترفع حالتك إليه ولتنجمع عليه. فيا من يغرق نفسه بالشهوات والمعاصي، ليتك أعطيتها ذلك في المباحات. فمن عاملته بالدنايا وعاملك بالمنن كيف لا تحبه؟ من عاملك بالكرم وعاملته باللؤم كيف لا تحبه؟

ما أحد يصحبك فينفعك، وكل من يصحبك إنما يصحبك لنفسه. وإنما تحبك الزوجة لتجتني منك مطايب العيش والملابس، وكذلك الولد يقول: أشد بك ظهري، فإذا كبرت ولم تبق فيك قوة ولا بغية رفضوك. لو انقطعت عن الخلق لفتح الله لك باب الأنس به تعالى، لأن أولياء الله قهروا أنفسهم بالخلوة والعزلة، فسمعوا من الله وأنسوا به، فإن أردت أن تستخرج مرآة قلبك من الأكدار فارفض ما رفضوه وهو الأنس بالخلق، وأنس ما جرى لفلان واتفق لفلان. ولا تقعد على أبواب الحارات، فمن استعد استمد، فإذا هيأ لك الاستعداد فتح لك باب الاستمداد، ومن أحسن قرع الباب فتح له، فرب طالب أساء قرع الباب فرد لسوء أدبه ولم يفتح له.

وأكثر ما أوتي العباد من قلة الصمت. فلو تقربت إلى الله لسمعت مخاطبته على الدوام في سوقك وبيتك، ولكن من استيقظ شهد، ومن نام لم تسمع أذنا قلبه ولم تشهد بصيرته، ولكن الحجاب مرخى. ولو أن العباد فطنوا لم يقبلوا إلا على الله، ولم يجلسوا إلا بين يديه، ولم يستفتوا غيره، لقوله ﷺ: «استفت قلبك وإن أفتوك»؛ لأن الخواطر الإلهية تأتي من الله تعالى فهي موافقة، وربما أخطأ المفتي والقلب لا يخطئ، وهذا مخصوص بالقلوب الطاهرة، وإنما يستفتى عالم، ولا علم لمن غفل عن الله تعالى.

❁❁❁

آداب علماء الله

كانوا ﷺ لا يدخلون في شيء بنفوسهم، ولكن من الله وبالله. وإن المسافة بعدت بين الأولياء والصحابة، فجعلت الكرامات جبرًا لما فاتهم من قرب المتابعة التامة. فإن من الناس من يقول: إن الأولياء لهم الكرامات، والصحابة لم يكن لهم ذلك. بل كانت لهم الكرامات العظيمة بصحبتهم له ﷺ وأي كرامة أعظم منها؟

منفعة الصلاة

[واعلم] أن كل صلاة لا تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر لا تسمى صلاة، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾. وأنت تخرج من الصلاة ومن مناجاة الحق ﷻ في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ومناجاة الرسول ﷺ بقولك: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته». وهذا في كل صلاة ثم تخرج إلى الذنوب بعد هذه النعم التي أنعم الله بها عليك.

عن الشيخ أبي الحسن الشاذلي ﷺ أنه كان يحضر عنده فقهاء الإسكندرية والقاضي، فجاؤوا مرة مختبرين للشيخ، فتفرس فيهم وقال: يا فقهاء، هل صليتم قط؟ فقالوا: يا شيخ، وهل يترك أحدنا الصلاة؟ فقال لهم: قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ فهل أنتم كذلك؟ إذا مسكم الشر لا تجزعوا، وإذا مسكم الخير لا تمنعوا؟ فسكتوا جميعًا، فقال لهم الشيخ: فما صليتم هذه الصلاة قط.

إن تفضل عليك بالتوبة فمن فضله ﷻ تبت إليه، وإنك تذنب سبعين سنة فتتوب إليه في نفس واحد، فيمحو ما عملته في تلك المدة. «التائب من الذنب كمن لا ذنب له» فالمؤمن كلما ذكر ذنبه حزن، وكلما ذكر طاعته فرح. قال لقمان الحكيم: المؤمن له قلبان، يرجو بأحدهما ويخاف بالآخر؛ يرجو قبول عمله، ويخاف أن لا يقبل منه. لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا. فمن أراد الجمع على الله فعليه بقيام أوامر الله.

إذا اطلعت على زوجتك بخيانة فإنك تغضب عليها، فكذلك نفسك قد خانتك في عمرك، وأجمع العقلاء على أن الزوجة إذا خانت لا يأويها زوجها بل يطلقها، فطلق نفسك.

سئل رسول الله ﷺ: ما أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «تقوى الله وحسن الخلق». فقيل له: فما أكثر ما يدخل الناس النار؟ فقال: «الأجوفان؛ الفم، والفرج». فاغسل قلبك بالندم على ما فاتك من الله عز وجل. غلطوا والله في النوائح على زوجة أو زوج، أو

وَالدٍ أو ولد، بل كان من حقهم أن يُقيموا النوائح على فقدانهم تقوى الله من قلوبهم.

تُقهقهُ بالضحك كأنك قد جاوزت الصراط المستقيم وعبرت النيران. إذا لم يكن بينك وبين الله ورع يحجزك عن المعاصي إذا خلوت، وإلا فضع التراب على رأسك لقوله ﷺ: «من لم يكن له ورع يحجزه عن معاصي الله إذا خلا، لم يعبأ الله بشيء من عمله».

النهي عن الإنفاق في الحرام

لا شيء يُخجّلك يوم القيامة مثل درهم أنفقته في حرام. ليس الشأن فيمن يرفق بك إذا وافقته، بل الشأن في مَن يرفق بك إذا خالفته. ومما يُخاف عليك موالاتُ الذنوب ليستدرجك فيها ويُمكنك منها، قال الله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

إن كانت معك عناية يُنفعك القليل، وإن لم تكن لك عناية لم ينفعك الكثير. لو كُشف عنك الحجاب لرأيت كلَّ شيء ناطقاً مسبّحاً لله تعالى، ولكن النقص فيك والحجاب منك.

ما أكثر احتراسك على بدنك، وما أرخص دينك عليك؟، لو قيل لك: إن هذا الطعام مسموم لامتنعت منه، ثم لو حلف لك بالطلاق أنه ليس بمسموم لتوقفت عنه، بل لو غسلت الوعاء الذي هو فيه مراراً لنفرت منه نفسك، فلم لا تكون كذلك في دينك؟ وكم لله عليك من أيادٍ أكثر من أمك، إنها إذا أخذتك وأنت صغير تُلبسك أحسن الملابس، فإن وسّختها تخلع عليك ثياباً أُخر في الوقت، وأنت تأتي إلى مملكة مزيّنة ليس فيها موضع شبر إلا ويصلح للسجود عليه، تُتلف ثوبك وتوسّخه بالمعصية. تجلى عليك المحاسن فتجعل فيها ما يكدرها من المعصية.

منفعة الصُّحبة

ليس كلّ مَن صَحِب الأكابر اهتدى بصحبتهم، فلا تجعل صحبة المشايخ علة في أمنك، فمن اغترّ بالله فقد عصاه، لأنك أمنت عقوبته كما يقول الجاهل: صَحِبت سيّدي فلاناً ورأيت سيّدي فلاناً، ويدعون بدعاوي كلها كاذبة باطلة، بل كان ينبغي لهم أن يزيدهم صحبة المشايخ خوفاً ووجلاً، فقد صحبت المشايخ رسول الله ﷺ وكانوا أكثر وجلاً ومخافة.

ربما كان الغنى دفعاً والفقر جمعاً، لأن الفاقة تُحوّجك أن تتضرع إلى الله، والفاقة تجمعك على الله خير من غنى يقطعك عنه. كما أُمرت أن تُعرض عن المعصية أمرت أن تعرض عمن عصى وتدعو له في الغيبة، والناس اليوم على العكس. وما عسى أن ينفعك صومك وصلاتك وأنت تقع

في عِرْضِ أخيك المسلم، قال رسول الله ﷺ: «جَدِّدوا إيمانكم بقول: لا إله إلا الله».

فدلَّ ذلك على أنه يُحصَلُ له غبارُ المعصية ودَنَسُ المخالفة، وما كلُّ غشٍّ يُطهِّره الماء، بل رُبَّ غشٍّ لا يُطهِّره إلا النار، كالذهبِ إذا كان فيه الغش، فكذلك العُصاة من هذه الأمة لا يصلُحون لدخول الجنة حتى تُطهِّرهم النار.

لا تحسُد إلا عبدًا قد لُفَّ في ملابس التقوى، هذا هو العَيش، وما أطيبَ عيشَ المُحبِّ مع الحبيبِ إذا لم يطَّلعْ عليه رقيب، فإن أحبَّ أن يطَّلعَ عليه رقيب فما صدق في حُبه، وكلُّ من أراد أن يَعلمَ أحدٌ بحاله فقد خدع. ولا تكن كأرباب الدنيا الذين طلقتهم الدنيا، بل كن من الذين طلقوها وفارقوها قبل افتراقهم. مثالك إذا آثرت الدنيا على الآخرة كمن له زوجتان، إحداهما عجوزة خائنة، والأخرى شابة وفيّة، فإذا آثرت العجوزة الخائنة على الشابة الوفية أفما تكون أحمق؟.

ضَرَرُ الذنب

ربما قَضَى عَلَيك بالذَنْب لِيُخرج منك الكِبر والعُجب. يُصَلِّي الرجل ركعتين فيعتمدُ عليهما، ويركَنُ إليهما ويُعجب بهما، فهذه حسنة أحاطت بها سيئات. وآخر يفعل المعصية فتُكسِبُه الذلة والانكسارَ وتُديم المسكنة والافتقار، فهذه سيئة أحاطت بها حسنات. كفى بك جهلا نظرك إلى صَغير إساءة غيرك، وتعاميك عن كبير إساءتك.

لا تنتقدْ على الناسَ بظاهر الشرع ولا تنكر عليهم. فلو خوطِبوا اليومَ بما كانت عليه الصحابة والسلفُ الصالحُ لم يستطيعوا، لأن أولئك حُجج الله على خلقه. مِثال الذنب عند أرباب البصائر كجيفةٍ أدخلَتْ الكلابُ خراطيمها فيها، أرأيت إذا غمَسَ رجل فمه في جيفة أفما تعيبُ عليه؟ فإذا كان الحق ﷻ قد جعَل ميزاناً للبيع والشراء أفما تجعلُ ميزانا للحقائق؟ المتنجسُ القدمِ لا يصلحُ للمحاضرة، فكيف بمَنْ تنجَّسَ فمه؟. من خان هان. قيمةُ اليد خمسمئة دينار، قُطعت في رُبع دينار إذا خانت. ومن تجرَّأ على صغيرة وقع في كبيرة. اعرفْ كمائنَ نفسك ولا تثِق بها، إذا قالت لك: تزورُ فلانا، فربما رُحت إلى نار تتأجّجُ وترمي فيها. هذا زمان اجتماع، قلَّ ما تجلسُ مجلسًا إلا وتعصي الله فيه، وكثيرٌ من السلف آثروا الجلوسَ في بيوتهم وتركوا صلاة الجماعة، فإن طالبتك النفسُ بالخروج فاشغلها بالقعود في الدار بشيءٍ من الطاعة، فإن الغيبة أشدُّ من ثلاثين زنية في الإسلام، ولكن الكلاب

لا ترقُدْ على الحِيطان بل على المَزابل.

صفةُ القلوب

من أرادَ أن ينظرَ إلى أمثلةِ القلوب فلينظرْ إلى الديار، فدارٌ قدْ خربَتْ وقد بقيت مَبْولة للبوّالين. وقلبٌ كالدار العامرة، وقلبٌ كالدار الخراب لا تظهرُ حتى تُعامل الله فتصدّق كل يوم ولو بربُع درهمٍ حتى يكتُبكَ اللهُ في ديوان المتصدقين، واتلُ من القرآن كل يومٍ ولو آيةً حتى يكتُبكَ اللهُ في ديوان التالين، وصلّ في الليل ولو ركعتين حتى يكتبكَ الله مع القائمين. وإياك تَغلَطَ وتقولَ: مَنْ عنده قوتُ يوم كيفَ يتصدّقُ؟ قال الله تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾. فمِثال المِسْكين إذا تُصدّق عليه كالمطيّة تحمِل زادكَ للآخرة.

البِدايَةُ هي النهاية

من أرادَ النهايات فعليه بتصحيح البدايات، مَن صَدَق مع الله كفاه اللهُ مضرّةَ الأعداء، وحمَلَ عنه مُؤنة الأرداء. قد هانَ كل الهوان مَن احتاج إلى الخلق. أتظنّ أن الدواء حُلو تأكله؟ إن لم تهجُم عليه هجمًا لم يحصُل لكَ الشفاء، فاهجُم على التوبة ولا تغلبنّكَ حلاوة المعصية. وإذا رأيتَ نفسَكَ متطلّعة إلى الشهْوةِ فاهربْ إلى الله واستغث به فإنهُ يُنجيك منها، بدلَ ما تقول: أين أصحاب الخطوة، أين الأولياء، أين الرجال؟ قُل: أين البصيرة؟ هل يصلُح للمُتلطّخ بالعَذِرة أن يرى بنت السُلطان؟.

عن الشيخ مَكين الدّين الأسمر ﷺ أنه قال: كنتُ بالإسكندَرية فرأيتُ شمسًا قد طَلَعتْ مع الشمس فتعجّبْتُ من ذلك، فدنوتُ منه فإذا شابٌ قد خطّ عِذاره قد غلب نورُه على نور الشمس، فسلمتُ عليه فردّ عليَ السّلام، فقلت له: من أينَ؟ قال: صَليت الصبح في المسجد الأقصى ببيت المقدس وأصلّي الظهر عندكم، والعصر بمكة والمغربَ بالمدينة، فقلتُ له: تكونُ ضيفي. قال: لا سبيل إلى ذلك، ثم وَدّعني وانصرف.

إكرامُ المؤمن

من أكرَم مؤمنا فكأنما أكرم الله، ومن آذى مؤمنا فقد آذى سيده ومولاه. فإياك أن تؤذي

مؤمنًا فإن نفسك قد امتلأت بمساويها يكفيها حملك. ما مثالك إلا كالبصلة إذا قشرت خرجت كلها قشورًا.

إذا أردت تنظيف الماء قطعت عنه أسبابه الخبيثة، فمثال الجوارح كالسواقي تجري إلى القلب، فإياك أن تسقي قلبك بالردى كالغيبة والنميمة والكلام السيء والنظر إلى ما لا يحل وغير ذلك، فإن القلب لا يحجبه ما خرج منه، وإنما يحجبه مما قام فيه. فاستنارة القلب بأكل الحلال والذكر وتلاوة القرآن وصونه عن النظر إلى الكائنات المباحات والمكروهات والمحرمات. فلا تطلق صائد بصرك إلا لمزيد علم أو حكمة.

عوض ما تقول بهذه المرآة صديت، قل: عيني بها رمد. يكون بك حب الرياسة والجاه وغيرهما. وتقول: الشيخ ما يجذب قلوبنا، قل: العائق مني. لو استعددت في أول يوم لما احتجت إلى حضور مجلس ثانٍ، وإنما احتجت إلى التكرار لقوة صداء قلبك حتى تكون لكل جلسة صقلة.

عليك بالحوالة على مولاك واترك من لا يستطيع أن ينفع غيره. اقطع إياسك من الخلق، ووجه رجاءك إلى الملك الحق. وانظر ماذا عملك وماذا تحمل معك من أول نشأتك؟ ما صنع معك إلا جودًا وإحسانا، وانظر ماذا صنعت معه؟ فلا ترى إلا جفاءً وعصيانا. ما أكثر موالاتك للمخلوقين وما أقل موالاتك لله.

جوارحك غنمك وأنت الراعي والله هو المالك، فإن رعيتها في المرعى الخصيب حتى أرضيت المالك استوجبت الرضى، وإن رعيتها في المرعى الوخيم حتى أعجف أكثرها، ثم جاء الذئب فأخذ بعضها استوجبت العقوبة من المالك، فإن شاء انتقم منك وإن شاء عفا عنك، إما ثواب إلى الجنة، وإما عقابك إلى النار. فإن صرفتها فيما يرضاه كنت ساعيًا في طريق الجنة، وإلا كنت ساعيا في طريق النار. فهذه موازين الحكمة فزن بها عقلك كما تزن بها الأشياء المحسوسات.

المسارعة إلى المساجد

فإن أردت أن تعرف كيف تمر على الصراط فانظر حالك في الإسراع إلى المساجد، فيكون جزاء الذي يأتي المسجد قبل الأذان أن يمر على الصراط كالبرق الخاطف، والذي يأتي في أول الوقت يمر عليه كأجاويد الخيل. وههنا صراط الاستقامة لا يشهد بالأبصار، ولكن تشهده القلوب، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ ولم يشر إلا إلى موجود، فمن

أضاءَت له الطريقَ يتبعها، ومن كانت طريقه مُظلمةً لم يشهدْها فيبقى متحيّرًا.

فإن كنتَ قد أطلقتَ سَمْعَك وبصرَك ولسانك بُرْهة من عُمرك، فقيِّد الآن ما أطلقتَ. قال رسول الله ﷺ: «يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام». وذلك لأنهم سبقوا في الدنيا بالعبادات، وأنت تترك الجماعة وتصلي وحدَك، وإذا صلّيتَها نقرتَها نقرَ الديك، وهل يُهدَى للملوك إلا ما حسُن وانتُخِب؟ فما سبق الفقراء إلى الجنة إلا لأنهم سبقوا إلى خدمة المولى في الدنيا.

المراد بالفقراء: الذين صبروا على مُرّ الفاقة، حتى إنّ أحدهم ليفرح بالشدّة كما تفرح أنت بالرّخاء، فدخولُ الفقراء الجنة يدلّ على تخصيصهم على الفاقة.

صُحْبَةُ الله تعالى

كفى بك جهلًا أن تتردّد إلى مخلوقٍ وتترك بابَ الخالق. فقد ارتكبتَ المعاصي من كل جانب، أفلا تكون محزونًا على نفسِك؟ والعجبُ كل العجب من عبدٍ يُقبل على صُحبة نفسه ولا يأتيه الشرّ إلا منها، ويتركُ صُحبةَ الله ولا يأتيه الخيرُ إلا منه.

فإن قيل: كيف الصحبة لله؟ فاعلم أن صُحبة كلِ شيءٍ على حَسَبه، فصُحبة الله تعالى بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وصُحبة الملَكَين بأن يُمليهما الحسنات، وصُحبة الكتاب والسنة أن يعمل بهما، وصُحبة السماء بالتفكّر فيها، وصُحبتك الأرض بالاعتبار لما فيها. وليس من لازم الصُحبة وجود الرُتبة.

فالمعنى في صُحبة الله صُحبة أياديه ونِعَمه. فمن صَحِبَ النِعَمَ بالشكر، وصحِب البلايا بالصبر، وصحِب الأوامر بالامتثال، والنواهي بالإنزجار، والطاعة بالإخلاص فقد صحِب الله تعالى، فإذا تمكّنت الصُحبة صارت خِلّة.

النهيُ عن القُنوطِ من رَحمةِ الله تعالى

إياك أن تقول: ذهبَ الخيرُ وانطوى بِساطه، فلسنا نريدُ من يُقنِّط الناس من رحمة الله ويُؤيِسهم منه تعالى. ففي زبور داود عليه وعلى نبينا أفضلُ الصلاة والسلام: «أرحم ما أكون بعبدي إذا أعرض عني». فرُبّ مُطيعٍ هلَك بالعُجب، وربّ مُذنِبٍ غُفِر له بسبب كسر قلبه.

عن الشيخ مَكين الدين الأسمر أنه قال: رأيتُ بالإسكندرية عبدًا مع سيّده وعليهما لواءٌ قد

أطبق مَا بيْنَ السماء والأرض، فقلتُ: يَا تُرَى هذا اللِّواءُ للسيِّد أم للعَبْدِ؟، فتبعتُهما حتى اشترى له سيِّدُه حاجة وفارقه، فلما ذهبَ العبدُ ذهَبَ اللواءُ معه، فعَلمْتُ أنه وَلِيٌ من أولياء الله تعالى، فجئتُ إلى سيِّده وقلت له: أتبيعُني هذا العبد؟ فقال: لماذا؟ فَمَا زالَ بِي حتى ذكرتُ له أمرَه، فقال لي: يا سيدي، الذي تطلبه أنت، أنَا أولى به، وأعتقه وكانَ وليًا كبيراً.

فمنهم مَن يَعرِفُ الأولياء بالشم من غير وجودِ طِيبٍ، ومنهم مَن يعرفهم بالذَوْق، إذا رأى وليًا ذَاق طَعمَ الحلاوة في فمه، وإذا رأى صَاحِبَ قطيعة ذَاق طَعمَ المِرارة في فمه.

الشريفسد الخير

مَنْ لم يترك المحرَّماتِ لَم ينفعه القيامُ بالواجبات، ومَنْ لم يحتم لَم ينفعْهُ الدواء. مَا أقلَّ بركة مَال وقعت فيه أيدي الناهبين، فهذا والله عُمر الغافلين منهوبٌ.

مثال الدنيا كعجوزٍ جذماءَ برصَاء سترت بثوب حرير، فالمؤمن نافرٌ ومُنفر عنها لانكشافها له. وما لِبسَ أحدٌ لباسًا أنتنَ مِنْ لِباسِ الدَعْوَى بأن يقول في المُخاصَمة: أنت مِثلي؟ وأنت يُصلحُ لك أن تكلّمَني؟ ومن أنت حتى أكلّمَك؟ فأوّل مَنْ هلك بذلك إبليس، فإياك وهذا ولو كان أعرَجَ أجذَمَ أجرَبَ فلا تحقره لحرمة لا إله إلا الله في قلبه.

حُسْنُ الظن بالله وبخَلق الله

وحَسِّنْ ظنك بكل أحدٍ تُفلحْ، أتحسَبُ أنّ حُسنَ الخُلق هو أَنْ يكون الإنسانِ حَسَنَ المُلتقى؟، ومَن أكرمَ الناس وضيّع حقوق الله تعالى ليس هذا بخُلقٍ حَسَن، بل لا تكونُ ممدوحًا بحُسن الخلُق حتى تكون قائمًا بحقوق الله تعالى وقائماً بأحكامه، مُستسلِمًا لأوامر الله، مجتنبًا لنواهيه. فمن منَع نفسه معاصي الله وأدّى حقوق الله فقد حَسُنَ خُلقه.

مَا سلّط الله عليك ألسنة العِباد إلا لتَرجعَ إليه. لا تزال لك قيمةً عند الله حتى تَعْصِيَ، فإذا عَصيتَ فلا قِيمَةَ لك. التقوى هي ترك مَعصيةِ اللهِ حيث كنتَ لا يراك أحَدٌ.

كان النبي ﷺ إذا شرب الماء قال: «الحمدُ لله الذي جَعله عَذبًا فراتا برحمته ولم يجعله مِلحاً أجاجًا بذنوبنا». وهو صلى الله عليه وسلم مقدّسٌ عن الذنوب ولكنْ تواضعاً منه وتعليمًا، وكان يُمكِنه أن يقول: بذنوبكم. وما أكل الرسُول ولا شرِبَ إلا ليُعلّمنا الأدب، وإلا فكان عليه الصَلاة والسلام يُطعَم ويُسقى. فالعارفُ يُنكس رَأسه إذا شرب، وربما تقطرُ عيْناه بالدموع

ويقول: هذا تودد من الله تعالى.

كان بعضهم لا يخرج لصلاة الجماعة لما يعرض له في طريقه، منهم مالك بن أنس ﷺ لأن الجماعة ربح والربح لا يحسب إلا بعد الإحاطة على رأس المال. ليس السباع في البرية بل السباع في الأسواق والطرق، وهي التي تنهش القلوب نهشاً.

مثال من يكثر الذنوب والاستغفار كمثل من يكثر شرب السم ويكثر استعمال الترياق، فيقال له: قد لا تصل إلى الترياق مرة، فيهجم عليك الموت قبل الوصول إليه.

آفات مَرَضِ القَلْب

من مرض قلبه منع أن يلبس لباس التقوى، فلو صح قلبك من مرض الهوى والشهوة تحملت أثقال التقوى، فمن لم يجد حلاوة الطاعة دلّ على مرض قلبه من الشهوة. وقد سمى الله تعالى الشهوة مرضاً بقوله تعالى: ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾.

ولك في علاجه طريقان: استعمال ما هو لك نافع وهو الطاعة، واجتناب ما هو لك مضر وهو المعصية. فإن فعلت ذنباً وأعقبته بالتوبة والندم والانكسار والإنابة كان ذلك سبب وصلتك به، وإن فعلت طاعة فأعقبتها بالعجب والكبر كان ذلك سبباً للقطيعة عنه.

عجباً لك كيف تطلب صلاح قلبك وجوارحك تفعل ما شاءت من المحرمات كالنظر والغيبة والنميمة وغير ذلك؟ فمثالك كمن يتداوى بالسم، أو كمن أراد تنظيف ثوبه بالسواد.

فعليك بالخلوة والعزلة، فمن كانت العزلة دأبه كان العز له، فمن صدقت عزلته ظفر بمواهب الحق له بالمنن، وعلامتها: كشف الغطاء، وإحياء القلب، وتحقيق المحبة.

حُسْنُ العمل

فعليك بحسن العمل لا بكثرته. كثرة العمل مع عدم الحسن فيه كالثياب الكثيرة الوضيعة الثمن، وقلة العمل مع حسنه كالثياب القليلة الرفيعة الثمن، كالياقوتة صغير جرمها كثير ثمنها.

فمن أشغل قلبه بالله وعالجه مما يطرأ عليه من الهوى، كان أفضل ممن يكثر من الصلاة والصيام.

مثال من صلى الصلاة بغير حضور قلب كان كمن أهدى للملك مائة صندوقة فارغة فيستحق العقوبة من الملك يذكره عليها دائماً. ومن صلاها بحضور القلب كان كمن أهدى له ياقوتة تساوي ألف دينار، فإن الملك يذكره عليها دائماً.

إذا دخلتَ في الصلاة فإنك تناجي الله سبحانه وتعالى وتُكلِّم رسُوله ﷺ لأنك تقول بالسلام عليك أيها النبيّ ورحمةُ الله وبركاته. ولا يُقال «أيها الرجُل» عند العرب إلا لمن يكون حاضرًا.

ركعتان بالليل خيرٌ من ألفٍ بالنهار، وأنت لا تُصلّي فيه ركعتين إلا لتجد ذلك في ميزانك.

وهل تشتري العَبْدَ إلا للخدمة، هل رأيتَ عبدًا يُشترى ليأكل وينام؟ ما أنت إلا عبدٌ اشتُريتَ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾.

اشْغَالُ النَّفْسِ بالطَّاعَةِ

من لم يُلزِم نفسَه لزمته، ومن لم يُطالبها طالبتْه. فلو جعلتَ عليها الأثقال بالطاعة لما طالبتك بالمعصية ولَمَا كانت تتفرّغ لها. هل رأيتَ الصالحين والعُبّاد يتفرّحون في الأعياد؟ من شغّل نفسَه بالفرح والمباحات شُغِل عن قيام الليل، فيقال له: شغّلْتَ نفسك عنا فشغلناك عن عبادتنا. ركعتان في جوف الليل أثقلُ عليك من جَبل أُحُد. فأعضاء يبِسَت عن الطاعة لا تصلح إلا للقطع، فإن الشجرة إذا يَبِسَت لا تصلُح إلا للنار.

ضَرَرُ حُبِّ الدنيا

من أحبَّ الدينا بقلبه كان كمن بَنى حسَنًا فوقه مِرحاض فرشَح عليه، فلا يزال كذلك حتى يُرى ظاهره كباطنه. ومنهم من يُنقّيه فلا يزال قلبُه أبيض، وتنقيته بالتوبة والأذكار والندم والاستغفار. كذلك أنت في حضرة الله مُلوّث بمعصيتك، تأكل الحرام وتنظر المحرّم. فمن يفعل المخالفات والشهَوات يُظلِم قلبه. فإن لم تتُبْ في حال الصحة ربما ابتلاك بالأمراض والمحن، حتى تخرج نقيًا من الذنوب كالثوب إذا غُسل.

فاصقل مِرآة قلبك بالخلوة والذكر حتى تلقى الله تعالى، وَلْيكُنْ قلبك ذاكرًا فينبعُ لك الأنوار، ولا تكن كمن يريدُ أن يحفِر بئرًا فيحفِرُ ذراعًا هُنا وذراعا هُنا فلا ينبعُ له ماءٌ أبدًا، بل احفرْ في مكانٍ واحدٍ فينبع لك الماء.

الدَّيْن

يا عبدَ الله، دينك هو رأس مالك، فإن ضيّعته ضيّعت رأس مالك، فاشغَل لسانك بذكره،

وقلبَك بمَحبّته، وجَوارِحك بخدمته، واحرُث وُجودك بالمحَارث حتى يجيء البَذرُ فينبتُ، ومن فعل بقلبه كما يفعل الفَلاح بأرضه أنار قلبَه.

مِثالُك مِثالُ رَجُلين اشتريا أرضًا قِياسًا واحدًا، فأخذها الواحدُ فنقّاها من الشوك والحشيش وأجرى بها الماء وبَذرَها فنبتت وجَنَى منها وانتفع بها، فهذا كمن نشأ في الطاعة قد أشرقت أنوار قلبه. وأما الآخرُ فإنه أهملها حتى نبت فيها الشوكُ والحشيشُ وبقيت مأوًى للأفاعي والحيات، فهذا قد أظلم قلبه بالمعاصي.

الوظيفةُ بعدَ حصُولِ العِلْم

إذا حضرتَ المجلس وخرجْتَ إلى المخالفات والغفَلات فإياك أن تقول: ماذا يُفيد الحضور؟ بل احضُر يكون بك مَرضُ أربعين سَنةً، أفتريدُ أن يذهب عنك في ساعة واحدةٍ أو في يومٍ واحدٍ؟ فمثاله كرمْلٍ رُمي في موضع أربعين عامًا، أفتريدُ أن يزول في ساعةٍ واحدةٍ أو في يومٍ واحدٍ؟ فمن فعل المعاصي وتقلّبَ في الحرام لو انغمس في سَبعة أبحرٍ لم تطهّره حتى يَعقِد مع الله عُقدة التوبة.

الغفلةُ جَنابةُ الباطن

للظاهر جَنابة تمنَعك من دُخول بيته وتلاوة كتابه، وللباطن جَنابة تمنعك من دخول حَضْرته وفهْم كلامه، وهي الغفلة.

فإذا طلبتَ النفسُ الشهَواتِ فألجِمْها بلجام الشرع، فمِثالها كالدابة إذا مالت لزرْع غيرك. فغض الأبصار عن مَيلها إلى المستَحسَنات، والقلوبَ عن مَيلها إلى الشهواتٌ. وليكن قلبك معمورًا لا يَصلُح لها على الدوام، والحق سبحانه وتعالى اختار لحضرته من يصلحُ لها من رَماد الكائنات. فمِثالهم كالعبيد يُعرَضون على الملك، فمن أخذه الملكُ أعزّه، ومن لا يصلحُ بقي للرعية.

نورُ الحِكمةِ وظُلْمةُ المعصية

ما أتيتَ لِموطن حِكمةٍ أو معصيةٍ إلا وفي عُنقك سِلسلة نورانية أو ظُلمانية، فإن كنتَ لا تشهدُها أنت فغيرُك يشهدها، ألا ترى أن الشمسَ يَشهدُها الناسُ أجمعون إلا من كان أعمى؟. ما فائدة العلمِ إلا بالعمَل به. مثاله كملك كتبَ إلى نائبه كتابا، فما فائدة الكتابِ أن تقرأه فقط،

إنما فائدتُه العَمَلُ به.

ومثال مَنْ يشتغل بالعلم وليس له بصيرة كمثل مائة ألفِ أعمى سلكوا طريقًا متحيّرين فيها، فلو كان فيهم واحد بعينٍ واحدةٍ لتبعهُ الناسُ أجمعون وتركوا مائة ألفِ أعمى. ومثال العِلمِ مع ترك العملِ كالشمعةِ تُضيءُ للناس بإحراق نفسها. علمٌ فيه الغفلةُ عن الله الجهلُ خيرٌ منه.

فمن أثمرت جوارحُه فقد أمطر قلبه لسانَه بالذكر، وعينَه بالغضّ، وأذنيه بالاستماع إلى العِلمِ، ويديه ورجليه بالسعي إلى الخيرات.

كثرةُ المعصيةِ في آخِرِ الزمان

من أكثرَ من مجالسةِ أهلِ هذا الزمانِ فقد تعرّضَ لمعصيةِ اللهِ تعالى. ومثالُه كمن جعل الحطبَ اليابسَ في النارِ ويريدُ أن لا تتّقد فقد أراد محالًا لأنه قد وَرَد.

خُصَّ بالبلاءِ من عرف الناسَ وعاش فيهم ممّن لم يعرفهم. فربما جالستَ غيرَ متقٍ وكنتَ أنتَ متقيًا فجرّك إلى الغيبةِ وقهرَك في نفسِك. ما خرّب القلوبَ إلا قلّةُ الخوف.

القلبُ الحسَنُ هو الذي لا يشغله عن الله تعالى حَسَنٌ. إن أردتَ شفاء قلبك فاخرُجْ إلى صحراءِ التوبةِ، وحوِّل رحالك من الغيبة إلى الحضور، والبَسْ ثيابَ الذِّلّة والمسكنة، فإن القلب يُشفى، ولكنك تحشو بطنك وتتفاخرُ بالسِّمَن، فمثالُك كالخروف الذي يُسمَّن للذبح، ألا فقد ذبحتَ نفسَك وأنت لا تشعُر.

وجوبُ طلبِ العِلم

لا يفُتْكَ مجلسُ الحِكمةِ ولو كنتَ على معصيةٍ، فلا تقل: ما الفائدةُ في سماعِ المَجْلِسِ ولا أقدرُ على تركِ المعصيةِ؟ بل على الرامي أن يرْمي، فإنْ لم يأخذِ اليومَ يأخُذْ غدًا. ولو كنتَ كيِّسًا فطِنًا لكانت حقوقُ الله عندك أحظى من حظوظِ نفسك.

ما يَطلعُ على الأسرارِ إلا أمين، وأنت تُعطي نفسَك حظَّها من المآكلِ والمشاربِ حتى تملأ بيتَ الخلاء. أو يكفيك حبُّ الدنيا، ومن أحبَّ الدنيا فقد خان، ومن خان فهل يُطلِعه الملِكُ على أسراره، فاستعمِلِ الأفكارَ وعليه أنزلَ الأنوار.

منفعةُ الخلْوة

ما نفعَ القلبَ شيءٌ مثلُ خلوةٍ يدخل بها ميدانَ فِكرةٍ. كيف يُشرق قلبٌ صُوَرُ الأكوان

مُنطبعةٌ في مرآته، أم كيف يَرحَل إلى الله وهو مُنكبٌّ على شهواته، أم كيف يَطمعُ أن يدخل حضرة الله وهو لم يتطهّر من جنابة غفلاته، أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته؟

أصلُ المعصية

أصلُ كلِّ معصيةٍ وغفلةٍ وشهوةٍ: الرِّضا عن النفس، وأصلُ كل طاعةٍ ويقظةٍ وعفّةٍ: عدمُ الرِّضا عنها. لا ترحَلْ من كونٍ إلى كونٍ فتكونَ كالحمارِ في الرحَى يسيرُ، والذي ارتحلَ إليه هو الذي ارتحل منه، ولكن ارحَلْ من الأكوانِ إلى المُكوِّن، وإنّ إلى ربك المنتهى.

منفعةُ الأنوار

إنما الأنوارُ مطايا القلوبِ والأسرارِ. والنورُ جندُ القلب كما أنَّ الظُلمةَ جندُ النفس. فإذا أراد الله أن ينصرَ عبدَه أمدّه بجنود الأنوار، وقطع عنه مددَ الظُلم والأغيار. النورُ له الكشفُ، والبصيرةُ لها الحكمُ، والقلبُ له الإقبال والإدبار.

الأكوانُ ظاهرها غِرّة وباطنها عِبرة، فالنفسُ تنظرُ إلى ظاهرِ غِرّتِها، والقلبُ ينظرُ إلى باطن عِبْرتها. متى أوحشكَ الله مِن خلقِهِ فاعلم أنه يريدُ أن يفتح لك بابَ الأنسِ به.

الصّلاةُ محلُّ المناجاة ومَعدِنُ المصافاة، يتّسعُ فيها ميادينُ الأسرار وتُشرقُ فيها شوارقُ الأنوار. علِم وجودَ الضعفِ منك فقلّل أعدادَها، وعلِمَ احتياجكَ إلى فضلِهِ فكثّرَ أمدادَها.

مُحاسَبةُ النفس

الناسُ يمدحونك بما يظنّون فيك، فكنْ أنتَ ذامّاً لنفسِك لما تعلَم منها. فإن أجهل الناس مَن ترك يقينَ ما عنده لظنِ ما عندَ الناس. غيِّبْ نظر الخلق إليك بنظر الله إليك، وغِبْ عن إقبالهم عليك بشهود إقباله عليك.

العملُ عنايةٌ مِن الله

اعلم أن العِباد يتشوّقون إلى ظهور سرّ العناية، فقال تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾. واعلم أنه لو أخلاهم من ذلك لتركوا العمل اعتمادا على الأزل، فقال تعالى:

﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

منفعة الفَقرِ والفَاقَةِ

إن أردت ورود المواهب عليك فصحح الفقر والفاقة لديك، ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾. أنوار أذن لها في الدخول، وأنوار أذن لها في الوصول، ربما وردت عليك الأنوار فوجدت القلب محشوًا بصور الآثار، فارتحلت من حيث نزلت.

فرّغ قلبك من الأغيار يملأه من المعارف والأسرار. المؤمن يشغله الثناء على الله عن أن يكون لنفسه شاكرًا، وتشغله حقوق الله عن أن يكون لحظوظه ذاكرًا. جعلك الله في العالم الأوسط بين ملكه وملكوته ليعلمك جلالة قدرك بين مخلوقاته، وأنك جوهرة انطوت عليها أصداف مكوّناته.

أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكوِّن، فإذا شهدته كانت الأكوان معك. العاقل بما هو أبقى أفرح منه بما هو يفنى. قد أشرق نوره وظهرت تباشيره، فصدّ عن هذه الدار موليًا، وأعرض عنها مغضيا، فلم يتخذها موطنا ولا جعلها سكنا، بل نهض الهمة فيها إلى الله تعالى، وسار إليه مستعينا به في القدوم عليه.

فما زالت مطية عزمه لا يقر قرارها دائما تسايرها إلى أن أناخت بحضرة القدس وبساط الأنس محل المفاتحة والمواجهة والمجالسة، والمحادثة والمشاهدة والملاطفة، وصارت الحضرة معشش قلوبهم، إليها يأوون وفيها يستوطنون. فإن نزلوا إلى سماء الحقوق وأرض الحظوظ فبالإذن والتمكين، والرسوخ في اليقين. فلم ينزلوا إلى الحقوق بسوء الأدب والغفلة، ولا إلى الحظوظ بالشهوة والمتعة، بل دخلوا في ذلك كله بالله ولله ومن الله وإلى الله.

حُرمة الطَّعنِ لأهل الله

فإياك يا أخي أن تصغي إلى الواقعين في هذه الطائفة، لئلا تسقط من عين الله وتستوجب المقت من الله، فإن هؤلاء القوم جلسوا مع الله على حقيقة الصدق وإخلاص الوفاء، ومراقبة الأنفاس مع الله، قد سلموا قيادهم إليه، وألقوا أنفسهم سلمًا بين يديه، وتركوا الانتصار لأنفسهم حياءً من ربهم، فكان هو المحارب عنهم لمن حاربهم، والغالب لمن غالبهم.

ولقد ابتلى الله هذه الطائفة بالخلق خصوصًا، ولا سيما أهل العلم، فقلّ أن تجد منهم من

شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ للتصديقِ بوليٍّ مُعيَّنٍ، بل يقول لك: نعم، إنَّ الأولياءَ موجودون ولكن أين هم؟ فلا يُذكر له أحدٌ إلا وأخذ يدفع خصوصيةَ الله فيه، طَلْقَ اللسان بالاحتجاج، عاريًا من التصديق، فاحذرْ مَنْ هذا وصفُه، وفِرَّ منه فِرارك من الأسد.

قال الشيخ أبو الحسن ﷺ: ليس الفقيه مَن فقأ الحجابُ عيني قلبه، وإنما الفقيهُ مَن فهِمَ سرَّ الإيجاد، وأنه ما أوجَدَه إلا لطاعته ولا خلَقَه إلا لخدمته. فإذا فهِمَ هذا كان هذا الفقهُ منه سببًا لزهدِه في الدنيا وإقباله على الآخرة، وإهماله لحظوظ نفسه واشتغاله بحقوق سيِّده، مفكِّرًا في المعاد، قائمًا بالاستعداد.

قال رسول الله ﷺ: «المؤمنُ القويُّ خيرٌ عند الله من المؤمن الضعيف وفي كلٍّ خير». والمؤمن القويُّ هو الذي أشرَقَ في قلبه نورُ اليقين. قال الله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾. سَبَقوا إلى الله فخلَّصوا قلوبهم مما سواه، فلم تعُقْهم العوائق، ولم تشغلهم عن الله الخلائق، فسبقوا إلى الله إذ لا مانع لهم.

وإنما مَنَعَ العبادَ من السَّبقِ جواذبُ التعلُّقِ بغير الله، فكلما همَّت قلوبهم أن ترحل إلى الله ﷺ جذبها ذلك التعلُّقُ الذي به تعلقت، فكرَّت راجعةً إليه ومُقبلةً عليه، فالحضرةُ مُحرَّمةٌ على من هذا وصفُه، وممنوعةٌ على مَن هذا نعتُه.

وافهمْ هٰهنا قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ والقلب السليم هو الذي لا تعلُّقَ له بشيءٍ غيرِ الله تعالى؛ وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ يُفهم منه أنه لا يصلح مجيئك إلى الله ولا الوصولُ إليه إلا إذا كنتَ فردًا مما سواه؛ وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ يُفهم منه أنه لا يأويك الله إلا إذا صحَّ يتيمُك مما سواه؛ وقوله ﷺ: «إن الله وترٌ يحبُّ الوتر» أي يحبُّ القلب الذي لا يُشفع بمثنيَّات الآثار، فكانت هذه القلوبُ لله وبالله، فهم أهلُ الحضرة المخاطَبون بعين المنَّة، فكيف يُمكنهم أن يكونوا لسواه مُستندين وهم لوجود الأحدية مُشاهدون؟.

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ: قويَ عليَّ الشهود فسألته أن يستر عليَّ ذلك، فقيل لي: لو سألته بما سأله موسى كليمه وعيسى روحه ومحمد حبيبه ﷺ وصفيُّه، لم يفعل ذلك ولكن سَلْه أن يُقوِّيك، فسألته فقوّاني.

فأهل الفهم أخذوا عن الله وتوكلوا عليه فكانوا بمعونته لهم، فكفاهم ما أهمَّهم وصرف عنهم ما أغمَّهم، واشتغلوا بما أمرهم عما ضمِن لهم علمًا منهم بأنه لا يَكِلُهم إلى غيره، ولا

يَمْنعهم مِنْ فضله، فدخلوا في الراحة ووقفوا في جنة التسليم، ولذاذة التفويض، فرفع الله بذلك مقداراهم وكمّل أنوارهم.

العلمُ الحقيقي

[واعلم] رحمك الله تعالى أن العِلْمَ حيث ما تكرّر في الكتاب العزيز أو في السنة المطهّرة إنما المرادُ به العلمُ النافع الذي تُقارنه الخشية، وتكتنفه المخافة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾، فبيّن أن العِلمَ تُلازمه الخشية، فالعلماء هم أهل الخشية. وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾، وقوله ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء». إنما المراد بالعلم في هذه المواطن كلها: العلم النافع القاهر للهوى القامع للنفس، وذلك متعيّن بالضرورة؛ لأن كلام الله تعالى وكلام رسول الله ﷺ أجلّ من أن يُحمل على غير هذا. والعلم النافع هو الذي يُستعان به على الطاعة، ويُلزم الخشية من الله تعالى، والوقوف على حدود الله تعالى، وهو علم المعرفة بالله تعالى.

ولكن مَن استرسل بإطلاق التوحيد ولم يتقيّد بظواهر الشريعة فقد قُذف به في بحر الزندقة، ولكن الشأن أن يكون بالحقيقة مؤيّدا، وبالشريعة مقيّداً. وكذلك المحقق فلا يكون منطلقا مع الحقيقة ولا واقفاً مع ظاهر إسناد الشريعة، وكان بين ذلك قواما. فالوقوف مع ظاهر الإسناد شِرك، والانطلاق مع الحقيقة من غير تقيّد بالشريعة تعطيل، ومقام الهداية فيما بين ذلك.

وكلّ علمٍ تسبِق إليك فيه الخواطر وتتبعها الصور، وتميل إليه النفس، وتلتذّ به الطبيعة، فارمِ به وإن كان حقا. وخذ بعلم الله الذي أنزله على رسول الله ﷺ، واقتدِ به وبالخلفاء مِنْ بعدِه، وبالصحابة والتابعين مِن بعدهم، وبالهداة إلى الله تعالى الأئمة المبرّئين من الهوى، ومتابعيهم تسلَمْ من الشكوك والظنون والأوهام والوساوس والدعاوي الكاذبة المضلّة عن الهدى وحقائقه.

وحسبك من العلم النافع العلمُ بالوحدانية. ومن العلم: محبة الله ومحبة رسوله ﷺ ومحبة الصحابة واعتقاد الحق للجماعة.

وإذا أردتَ أن يكون لك نصيب مما لأولياء الله تعالى فعليك برفض الناس جملة إلا من يدلّك على الله تعالى، إما بإشارة صادقة أو بأعمال ثابتة لا ينقضها كتاب ولا سنة. فارفع همّتك إلى مولاك واشتغل به دون غيره. سمعت الشيخ أبا العباس المرسيّ يقول: والله ما رأيت العز

إلا في رفع الهمة عن الخلق.

حقيقةُ العزّة

واذكر رحمك الله ههنا قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فمن العزّ الذي أعزّ الله به المؤمن: رفعُ همّته إلى مولاه وثقته به دون ما سواه. واستح من الله بعد أن يكون كساك حلّة الإيمان، وزيّنك بزينة العرفان أن تستولي عليك الغفلة والنسيان حتى تميل إلى الأكوان، أو تطلب من غيره وجود الإحسان.

وقبيح بالمؤمن أن يُنزل حاجته بغير مولاه مع علمه بوحدانيته وانفراده بربوبيته، وهو يسمع قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾. وليذكر قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾، ومن العقود التي عاقدته عليها: أن لا ترفع حوائجك إلا إليه، ولا تتوكّل إلا عليه. ورفع الهمة عن الخلق هو ميزان الفقراء ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ فيظهر الصادق بصدقه والمدّعي بكذبه.

وقد ابتلى الله تعالى بحكمته ووجود منّته الفقراء الذين ليسوا بصادقين بإظهار ما كمنوه من الرغبة وأسروه من الشهوة، فابتذلوا أنفسهم لأبناء الدنيا مباسطين لهم موافقين لهم على ما ربهم، مدفوعين عن أبوابهم، فترى الواحد منهم يتزيّن كما تتزيّن العروس مُعتنون بإصلاح ظواهرهم، غافلون عن إصلاح سرائرهم. ولقد وسمهم الحق وسمة كشف بها عوارهم، وأظهر أخبارهم فبعد أن كانت نسبتهم مع الله أن لو صدق مع الله أن يقال له: عبد الكبير، فأخرج عن هذه النسبة فصار يقال له: شيخ الأمير.

أولئك الكاذبون على الله تعالى الصادون العباد عن صحبة أولياء الله، لأن ما يشهده العوام منهم يحملونه على كل منتسب إلى الله، صادق وغير صادق. فهم حُجُبُ أهل التحقيق، وسُحُب شمس أهل التوفيق. ضربوا طبولهم، ونشروا أعلامهم، ولبسوا دروعهم، فإذا وقعت الحملة ولّوا على أعقابهم ناكصين، ألسنتهم منطلقة بالدعوى، قلوبهم خالية من التقوى. ألم يسمعوا قوله ﷻ: ﴿لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾ أترى إذا سأل الصادقين أيترك المدّعين من غير سؤال؟ ألم يسمعوا قوله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فهم في إظهار زيّ الصادقين وعملهم عمل المعرضين.

❁❁❁

الرزق

قال الله تعالى: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ فاعلَمْ أنّ بابَ الرزقِ طاعةُ الرّازقِ، فكيف يُطلَب منه بمعصيته، أم كيف يُستمطر فضلُه بمخالفته؟ وقد قال عليه أفضلُ الصلاة والسلام: «لا يُنالُ ما عندَ الله بسَخطه» أي لا يُطلب رزقه إلا برضاه. وقد قال تعالى مُبيّنًا لذلك بقوله: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾. ولهذا المعنى قال الشيخ أبو العباس ﷺ في حزبه لمّا قال: وأعطنا كذا وكذا، قال: والرزقَ الهنيَّ الذي لا حجاب به في الدنيا، ولا حسابَ ولا سؤالَ ولا عقابَ عليه في الآخرة. فأهلُه على بساط عِلم التوحيد والشرْع سالمين من الهوى والشهوة والطبْع.

التدبير

واحذَرْ من التدبير مع الله تعالى. فمثال المُدبّر مع الله كعبدٍ أرسله السيّدُ إلى بَلَدٍ ليصنعَ له ثيابا، فدخل العبدُ تلك البَلْدة فقال: أين أسكنُ، ومَنْ أتزوّج؟ فاشتغل وصرف همّته كما هنالك وعطّل ما أمره السيد به حتى دعاه إليه، فجزاؤه من السيد أنّ جزاءَه القطيعةُ ووجودُ الحجْبة، لاشتغاله بأمر نفسه عن حق سيده. كذلك أنت أيها المؤمن أخرجك الحق إلى هذه الدار وأمرك فيها بخدمته وقام لك بوجود التدبير منّةً لك، فإن اشتغلت فيها بتدبير نفسك عن حقّ سيّدك فقد عدلتَ عن سبيل الهُدى، وسلكتَ مسالك الردى.

ومثال المدبر مع الله والذي لا يُدبّر مع الله، كعبدَين للملك، أما أحدهما فمشتغل بأوامر سيده، لا يلتفت إلى مَلبسٍ ولا مأكل، بل إنما همته خدمة السيد، فأشغله ذلك عن التفرغ لحظوظ نفسه. وأما العبدُ الآخر فكيفما طلبَه سيدُه وجده يغسل ثيابه، وفي سياسة مَركوبه، وتحسين زيّه. فالعبدُ الأولُ أولى بإقبال سيده من العبد الثاني.

والعبدُ إنما اشتُري للسيّد لا لنفسه، كذلك العبدُ البصير الموفَّق لا تراه إلا مشغولا بحقوق الله وامتثال أوامره عن محابّ نفسه ومُهمّاتها. فلما كان كذلك قام له الحق ﷺ بكل أموره وتوجّه له بجزيل عطائه لصدقه في توكله، لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾. والغافلُ ليس كذلك، لا تجده إلا في تحصيل دنياه وفي الأشياء التي توصله إلى هواه. ومثال العبْد مع الله في هذه الدار كالطفل مع أمه، ولم تكن الأمّ لتدَعَ تدبير ولدها في كفالتها، ولا أن تُخرجه مِن رعايتها. كذلك المؤمن مع الله قائمٌ له بحُسْن الكفالة، فهو سائق إليه المِنَن، ودافع

عنه المحن.

ومثال العبد في الدنيا كمثل عبد قال له السيد: اذهب إلى أرض كذا وكذا، واحكم أمرك لأن تسافر منها في برية كذا وكذا، وخذ أهبتك وعدتك، فإذا أذن له السيد في ذلك فمعلوم أنه قد أباح له أن يأكل ما يستعين به على إقامة بنيته ليسعى في طلب العدة، وليقوم بوجود الأهبة. كذلك العبد مع الله، أوجده في هذه الدار وأمره أن يتزود منها لمعاده، فقال الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ فمعلوم أنه إذا أمره بالزاد للآخرة فقد أباح له أن يأخذ من الدنيا ما يستعين به على تزوده إلى الآخرة واستعداده وتأهبه لمعاده.

ومثال العبد مع الله كمثل أجير أتى به ملك إلى داره، وأمره أن يعمل عملا، فما كان الملك ليأتي بالأجير ويستخدمه في داره ويتركه من غير تغذية، إذ هو أكرم من ذلك، فكذلك العبد مع الله، فالدنيا دار الله والأجير هو أنت، والعمل هو الطاعة والأجرة هي الجنة، ولم يكن الله ليأمرك بالعمل ولا يسوق لك مما به تستعين عليه إلا لخيرك.

ومثال العبد مع الله تعالى كمثل عبد أمره الملك أن يقيم في أرض كذا ويحارب فيها العدو ويجاهده فيها، فمعلوم أنه إذا أمره بذلك أباح له أن يأكل من مخازن تلك الأرض بالأمانة ليستعين به على محاربة العدو. وكذلك العباد أمرهم الحق ﷻ بمحاربة النفس والشيطان ومجاهدتهما، لقوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾، فلما أمر العبد بمحاربته أذن له أن يتناول من منابت أرضه ما يستعين به على محاربة الشيطان، إذ لو تركت المآكل والمشرب لم يمكنك أن تقوم بطاعته، ولا أن تنهض لخدمته.

ومثال العبد مع الله كمثل ملك له عبيد، فبنى دارا وبهجها وحسنها وتولى غراسها، وكمل المشتهيات فيها في غير الموطن الذي فيه العبيد، وهو يريد أن ينقلهم إليها، أترى إذا كانت هذه عنايته بهم فيما ادخر لهم عنده وهيأه لهم بعد الرحلة، أيمنعهم ههنا أن يتناولوا من منته وفضلات طعامه وهو قد هيأ لهم الأمر العظيم والفضل الجسيم؟ كذلك العباد مع الله، جعلهم في الدنيا وهيأ لهم الجنة، فلا يريد أن يمنعهم من الدنيا ولكن ما يقيم به وجودهم، فقال تعالى: ﴿كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾. وإذا ادخر لك الباقي ومن عليك به لا يمنعك الفاني، فإنما يمنعك مما لم يقسمه لك، وما لم يقسمه لك فليس لك.

ومثال المهموم بأمر دنياه الغافل عن التزود لأخراه، كمثل إنسان جاءه سبع وهو يريد أن يفترسه ووقع عليه ذباب، فاشتغل بذب الذباب ودفعه عن التحرز من السبع. والحق إن هذا عبد أحمق، فاقد وجود العقل، ولو كان متصفاً بالعقل لشغله أمر الأسد وصولته وهجومه عليه عن الفكرة في الذباب. كذلك المهتم بأمر دنياه عن التزود للآخرة، دل ذلك منه على وجود حمقه، إذ لو كان فهمًا عاقلا لتأهب للدار الآخرة التي هي مسؤول عنها وموقوف عليها، فلا يشتغل بأمر الرزق، فإن الاهتمام به بالنسبة للآخرة نسبة الذباب إلى مفاجأة الأسد وهجومه.

ومثال المدخر للأمانة كعبد الملك لا يرى أن له مع سيده شيئا، ولا يعتمد على ادخار ما في يده ولا يد له منه، بل على ما يختار السيد له، فإذا فهم هذا العبد أن الإمساك مراد السيد، أمسك لسيده لا لنفسه، حتى يتخير موضع صرفه. فيكون له صارفا حين يفهم من سيده إرادة صرفه، فهذا بإمساكه غير ملوم لأنه أمسك لسيده لا لنفسه. كذلك أهل المعرفة بالله إن بذلوا ففيه، وإن أمسكوا فله، يبتغون ما فيه رضاه، ولا يريدون ببذلهم وإمساكهم إلا إياه، فهم خزان أمناء، وعبيد كبراء، وأبرار كرماء.

قد حررهم الحق من رق الآثار، فلم يميلوا إليها بحب ولم يقبلوا عليها بود. منعهم من ذلك ما أسكنه في قلوبهم من حب الله ووده، وما امتلأت به صدورهم من عظمته ومجده، فصارت الأشياء في أيديهم كهي في خزائن الله من قبل أن تصل إليهم علمًا بأن الله تعالى يملكهم ويملك ما ملكهم.

فائدة التدبير

تبيان للمعتبرين وهداية للمستبصرين، وهو أن من خرج عن تدبيره لنفسه كان الله هو المتولي بحسن التدبير له.

التدبير على قسمين: تدبير محمود، وتدبير مذموم.

فالتدبير المذموم: هو كل تدبير ينعطف على نفسك بوجود حظها ليس لله فيه شيء، كالتدبير في تحصيل معصية، أو في حظ بوجود غفلة، أو طاعة بوجود رياء وسمعة، ونحو هذا فهذا كله مذموم لأنه إما موجب عقابا وإما موجب حجابا.

ومن عرف نعمة العقل استحيا من الله سبحانه أن يصرف عقله إلى تدبير ما لا يوصله إلى قربه، ولا يكون سببا لوجود محبته. والعقل أفضل ما من الله به على عباده، لأنه سبحانه خلق

الموجودات وتفضّل عليها بالإيجاد ودوام الإمداد، فاشتركت الموجودات في إيجاده وإمداده، فلما اشتركت أراد الحق سبحانه أن يميز الآدمي عنهم، فأعطاه العقل وأيّده به وفضله بذلك على الحيوان، وأكمل به نعمته على الإنسان. وبالعقل ووفوره وإشراقه ونوره تتم مصالح الدنيا والآخرة.

فصرف نعمة العقل إلى تدبير الدنيا التي لا قدر لها عند الله تعالى كفر لنعمة العقل. وتوجهه إلى الاهتمام بإصلاح شأنه في معاده قياماً بشكر المحسن إليه، والمفيض من نوره عليه أحق به وأحرى وأفضل له وأولى. فلا تصرف عقلك الذي من الله به عليك في تدبير الدنيا التي هي كما أخبر عنها رسول الله ﷺ بقوله: «الدنيا جيفة قذرة». وكما قال للضحاك: «ما طعامك؟» قال: اللحم واللبن. قال: «ثم يعودان إلى ماذا؟» قال: إلى ما قد علمت يا رسول الله. قال: «فإن الله قد جعل ما يخرج من ابن آدم مثلاً للدنيا».

التدبير المحمود: هو ما كان تدبيراً إلى ما يقربك إلى الله ﷺ، كالتدبير في براءة الذمة من حقوق المخلوقين، إما وفاء وإما استحلالاً، وتصحيح التوبة إلى رب العالمين، والفكرة فيما يؤدي إلى قمع الهوى المردي والشيطان المغوي، فهذا كله محمود لا شك فيه، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «فكرة ساعة خير من عبادة سبعين سنة».

أنواع التدبير

التدبير للدنيا على قسمين: تدبير الدنيا للدنيا، وتدبير الدنيا للآخرة.

فتدبير الدنيا للدنيا: هو أن يدبّر في أسباب جمعها افتخاراً واستكثاراً لها، وكلما زيد فيها شيء ازداد غفلة واغتراراً. فأمارة ذلك: أن تشغله عن الموافقة وتؤديه إلى المخالفة.

وتدبير الدنيا للآخرة: كمن يدبّر المتاجر ليأكل منها حلالاً أو ليُنعم بها على ذي الفاقة إفضالاً، وليصون بها نفسه عن الناس إجمالاً. فأمارة ذلك: عدم الاستكثار والادخار والإسعاف والإيثار.

فقد تبين من هذا أنه ليس كل طالب للدنيا مذموماً، بل المذموم من طلبها لنفسه لا لربه، ولدنياه لا لآخرته، فالناس إذاً على قسمين: عبد طلب الدنيا للدنيا، وعبد طلب الدنيا للآخرة.

وسمعت شيخنا أبا العباس المرسي ﷺ يقول: العارف لا دنيا له ولا آخرة، لأن دنياه لآخرته، وآخرته لربه. وعلى هذا تحمل أحوال الصحابة والسلف ﷺ أجمعين، فكل ما دخلوا فيه من الأسباب فهم بذلك إلى الله متقربون، ولرضاه منتسبون، لا يقصدون بذلك الدنيا وزينتها ووجود

لذاتها. ولهذا وصفهم الحق سبحانه وتعالى بقوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ الآية. وما ظنك بقوم يحبهم الله واختارهم لصحبة رسوله ﷺ ولمواجهة خطابه في تنزيله. فما أحد من المؤمنين إلى يوم القيامة إلا وللصحابة في عنقه مِنَنٌ لا تحصى وأيادي لا تنسى؛ لأنهم هم الذين حملوا إلينا عن النبي ﷺ الحكم والأحكام، وبيّنوا الحلال من الحرام، وفهموا الخاص والعام، وفتحوا الأقاليم والبلاد، وقهروا أهل الشرك والعناد. ويحق قوله ﷺ صلاة وسلاما دائما أبدا: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم». وقد وصفهم الله في الآية الكريمة بأوصاف إلى أن قال: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾. دل ذلك من قوله ﷻ أنهم ما ابتغوا بما حملوه من الدنيا ولم يقصدوا بذلك إلا وجهه الكريم وفضله العظيم. وقال ﷻ في آية أخرى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ الآية. ولم ينف عنهم الأسباب ولا التجارة ولا البيع ولا الشراء فلا يخرجهم عن المدحة غناهم إذا قاموا بحقوق مولاهم.

قال عبد الله بن عتبة: كان لعثمان بن عفان ؓ عند خازنه يوم قتل زنة مائة ألف وخمسمائة دينار، وألف ألف درهم، وترك ألف فرس، وألف مملوك، وخلف ضباعة بئر أريس وخيبري ووادي القرى ما قيمته مئتا ألف دينار. وخلف عمرو بن العاص ثلاثمائة ألف دينار. وبلغ ثمن مال الزبير بن العوام خمسين ألف دينار، وترك ألف فرس وألف مملوك. وغنى عبد الرحمن بن عوف ؓ أشهر من أن يذكر.

وكانت الدنيا في أكفهم لا في قلوبهم، صبروا عنها حين فقدت، وشكروا الله حين وجدت. وإنما ابتلاهم الله بالفاقة في أول أمرهم حتى تكملت أنوارهم، وتطهرت أسرارهم، فبذلها لهم حينئذ، لأنهم لو أعطوا منهل قبل ذلك لعلها كانت تأخذ منهم، فلما أعطوها بعد التمكين والرسوخ في اليقين تصرفوا فيها تصرف الخازن الأمين، وامتثلوا فيها قول رب العالمين: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾. فكانت الدنيا في أيدي الصحابة لا في قلوبهم.

ويكفيك في ذلك خروج عمر بن الخطاب ؓ عن نصف ماله، وخروج أبي بكر الصديق ؓ عن ماله كله، وخروج عبد الرحمن بن عوف ؓ عن سبعمائة بعير موقورة بالأحمال، وتجهيز عثمان بن عفان ؓ جيش العسرة، إلى غير ذلك من حسن أفعالهم وسني أحوالهم ؓ أجمعين رضاء دائما أبدا.

فتضمنت الآيات التزكية لظاهرهم وسرائرهم، وإثبات محامدهم ومفاخرهم. فقد تبين من

هذا أن التدبير على قسمين: تدبير الدنيا للدنيا كما هو حال أهل القطيعة اللئام الغافلين، وتدبير الدنيا للآخرة كحال الصحابة الأكرمين والسلف الصالح رضوان الله تعالى عليهم أجمعين وجعلنا ممن اقتدى بهم، آمين بل ألفَ ألفِ آمين.

فصل

نذكر فيه مناجاة الحق سبحانه وتعالى لعبده على لسان هواتق الحقائق في شأن التدبير والرزق

أيها العبد، ألق سمعك وأنت شهيد يأتك مني المزيد، وأصغ بسمعك فأنا لست عنك ببعيد.

كنتُ بتدبيري لك قبل أن تكون لنفسك، فكن لنفسك بأن لا تكون لها، وتوليت رعايتها قبل ظهورك وأنا الآن على الرعاية لها، أنا المنفرد بالخلق والتصوير، وأنا المنفرد بالحكم والتدبير، لم تشاركني في خلقي وتصويري، فلا تشاركني في حكمتي وحكمي وتدبيري. أنا المدبر الملكي وليس لي فيه ظهير، وأنا المنفرد بحكمي فلا أحتاج إلى وزير.

أيها العبد، من كان لك بتدبيره قبل الإيجاد فلا تشاركه في المراد. من عوّدك حسن النظر منه إليك فلا تقابله بالعناد. عوّدتك حسن النظر مني لك فعوّدني إسقاط التدبير منك معي، أشكّاً بعد وجود التجربة، وحيرة بعد وجود البيان، وضلالا بعد وضوح الهدى؟ وقد سلمت لي قيامي بمملكتي وأنت من مملكتي فلا تنازع ربوبيتي ولا تضادد بتدبيرك مع وجود الوهيتي. متى أحوجتك إليك حتى تحتال عليك، متى وكلت شيئًا من مملكتي لغيري حتى أكِلَ ذلك إليك، متى خاب من كنت له مدبرًا، ومتى خذل من كنت له ناصرًا.

أيها العبد، لتشغلك خدمتي عن طلب قسمتي، وليمنعك حسن الظن بي عن اتهام ربوبيتي.

لا ينبغي أن يتهم محسن، ولا أن ينازع مقتدر، ولا أن يضاد قهار، ولا أن يعترض على حكيم، ولا أن يعال هم مع لطيف خبير. لقد فاز بالنجح من خرج عن الإرادة معي، ولقد دل على تيسير الأمور من احتال علي، ولقد استوجب النصر مني عبد إذا تحرك تحرك بي، ولقد استمسك بأقوى الأسباب من استمسك بسببي.

أيها العبد، نريد منك أن تريدنا، ولا تريد معنا، ونريد منك أن تختارنا ولا تختار معنا، ونرضى لك أن ترضانا ولا ترضى سوانا. وكما سلمت لي تدبيري في أرضي وسمائي، وانفرادي فيهما بحكمي وقضائي، سلّم وجودك لي فإنك لي، ولا تدبّر معي فإنك معي، واتخذني وكيلا وثق بي كفيلا.

أعطك عطاءً جزيلا وأهبك فخراً جليلاً.

ويحك إنّا أجللنا قدرك أن نشغلك بأمر نفسك فلا تصغّر قدرك، يا مَنْ رفعناه لا تذكر بحوالتك على غيري، يا مَنْ أعززناه ويحك أنت عندنا أجلّ من أن نشغلك بغيرنا. لحضرتي خلقتك وإليها خطبتك وبجواذب عنايتي إليها جذبتك. فإن اشتغلت بنفسك حجبتك، وإن اتبعت هواها طردتك، وإن خرجت عنها قرّبتك، وإن توددت إليّ بإعراضك عما سواي أحببتك.

أيها العبد، ما آمن بي من نازعني، ولا وحّدني من دبّر معي، ولا رضي بي من شكى مما أنزلت به إلى غيري، ولا اختارني من اختار معي، ولا امتثل أمري من لم يستسلم لقهري. لو طلبت التدبير لنفسك لجهلت، فكيف إذا دبّرت لها، ولو اخترت معي مما أنصفت فكيف إذا اخترت عليّ.

أيها العبد، يكفيك من الجهل أن تسكن لما في يدك ولا تسكن لما في يدي. أنا أختار لك أن تختارني، أفتختار عليّ؟ يا مهموماً بنفسه، لو ألقيتها إلينا لاسترحت. ويحك أعباء التدبير لا يحملها إلا الربوبية، وليس يقوي عليها ضعيف البشرية. ويحك أنت محمول فلا تك حاملاً، أردنا راحتك فلا تكن لنفسك متعباً.

أيها العبد، أمرتك بخدمتي وضمنت لك بقسمتي فأهملت ما أمرت وشككت فيما ضمنت. ولم أكتف بقسمتي لك بالضمان حتى أقسمت، ولم أكتف بالقسم حتى مثلت فخاطبت عباداً يفهمون فقلت: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ وقد رزقت من غفل عني وعصاني، فكيف لا أرزق من أطاعني ودعاني؟.

ويحك الغارس للشجرة ساقيها، والممد للخليقة هو باريها. مني كان الإيجاد وعليّ دوام الإمداد، مني كان الخلق وعليّ دوام الرزق. أأدخلك داري وأمنعك إبراري؟ أأبرزك لكوني وأمنعك وجود عوني، أأخرجك إلى وجودي وأمنعك جودي؟ لك هيأت منتي، وفيك أظهرت رحمتي وما قنعت بالدنيا حتى ادخرت لك جنتي وما اكتفيت لك بذلك أتحفتك برؤيتي. فإذا كانت هذه أفعالي فكيف تشك في إفضالي، فاخترني ولا تختر عليّ ووجّه قلبك بالصدق إليّ، فإن فعلت أريتك غرائب لطفي وبدائع جودي، وأمتع سرك بشهودي.

لقد ظهرت الطريق لأهل التحقيق وبينت معالم الهدى لذوي التوفيق، فبحق سلّم إليّ الموقنون وببيان توكل عليّ المؤمنون. علموا أني خير لهم من أنفسهم لأنفسهم، وأن تدبيري لهم أحرى من تدبيرهم لها، فأذعنوا لربوبيتي مستسلمين وطرحوا أنفسهم بين يديّ مفوضين. فعوضتهم عوض ذلك راحة في نفوسهم ونوراً في عقولهم ومعرفة في قلوبهم وتحقيقا بقربي في

أسرارهم، هذا في هذا الدار. ولهم عندي إذا قدموا علي أن أجلّ منصبهم وأُعلي محلّهم، ولهم إذا أدخلتهم داري، «ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

أيها العبد، الوقتُ الذي أنت تستقبله لم أطالبك فيه بالخدمة فلا تطالبني فيه بالقسمة، فإذا كلّفتك تكفّلتُ لك، وإذا استخدمتك أطعمتك. واعلم بأني لا أنساك ولو نسيتني، وإني ذكرتك من قبل أن تذكرني، وأن رزقي عليك دائم وإن عصيتني. فإذا كنت لك كذلك في إعراضك عني فكيف ترى أن أكون لك في إقبالك علي. ما قدرتني حق قدري إن لم تستسلم لقهري، ولا رعيتَ حق برّي إن لم تمتثل أمري فلا تعرض عني، فإنك لا تجد من تستبدله مني، ولا تغتر بغيري، فلا أحدَ يغنيك عني.

أنا الخالقُ لك بقدرتي، وأنا الباسط لك منّتي، فكما أنه لا خالقَ غيري فكذلك لا رازقَ غيري، أأخلق وأحيل على غيري، فأنا المتفضّل وأمنعُ العبّاد وجود خيري وأنا المنعم. فثِق أيها العبدُ وأنا ربّ العباد، واخرج من مرادك إليّ أبلّغك عين المراد، واذكر سوابق لطفي ولا تنس حق الوِداد.

المُناجاة

مُناجاته رضي الله تعالى عنه:

إلهي، أنا الفقير في غناي فكيف لا أكون فقيرًا في فقري، وأنا الجهول في علمي فكيف لا أكون جهولا في جهلي. إلهي، مني ما يليق بلؤمي ومنك ما يليق بكرمك، إن ظهرت المحاسن مني فبفضلك ولك المنة علي، وإن ظهرت المساوي مني فبعدلك ولك الحجة علي. إلهي، كيف تكلني وقد توكلت لي، وكيف أضام وأنت الناصر لي، أم كيف أخيب وأنت الحفي بي. ها أنا أتوسل إليك بفقري وكيف أتوسل بما هو محال أن يصل إليك، أم كيف أشكو إليك حالي وهو لا يخفى عليك، أم كيف أترجم بمقالي وهو منك برز وإليك، أم كيف تخيّب آمالي وهي قد وفدت عليك، أم كيف لا تحسن أحوالي وبك قامت وإليك.

إلهي، ما ألطفك بي مع عظيم جهلي، وما أرحمك بي مع قبيح فعلي، وما أقربك مني وما أبعدني عنك، وما أرأفك بي، فما الذي يحجبني عنك. إلهي، كلما أخرسني لؤمي أنطقني كرمك، وكلما أيأستني أوصافي أطمعني منّتك. إلهي، من كانت محاسنه مساوي فكيف لا تكون مساويه مساوي، ومن كانت حقائقه دعاوي فكيف لا تكون دعاويه دعاوي. إلهي، كيف أعزم وأنت

القاهرُ، وكيف لا أعزمُ وأنت الآمرُ، ترددي في الآثار يوجب بُعْدَ المزار، فاجمعني عليك بخدمة توصلني إليك. كيف يُستدلّ عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك، أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لكِ حتى يكون هو المظهرَ لك. متى غِبتَ حتى تحتاجُ إلى دليل يدلُّ عليك، ومتى بعُدتَ حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك.

إلهي، عميَت عينٌ لا تراك عليها رقيبًا، وخسِرت صفقةُ عبدٍ لم تجعل له من حُبّك نصيبًا.

إلهي، هذا ذلّي ظاهرٌ بين يديك، وهذا حالي لا يخفى عليك، منك أطلبُ الوصول وبك أستدلّ عليك، فاهدِني بنورك إليك، وأقِمْني بصِدق العبودية بين يديك.

إلهي، علّمني من عِلمك المخزون، وصُنّي بسرّ اسمك المصون، وحقّقني بحقائق أهل القُرب، واسلُك بي في مَسالك أهل الجذب، وأغنِني بتدبيرك عن تدبيري، وباختيارك لي عن اختياري، وأوقفني على مَراكِز اضطراري، وأخرجني من ذل نفسي، وطهّرني من شكي وشِركي قبل حلول رمسي، بك أستنصرُ فانصرْني، وعليك أتوكل فلا تكِلْني، وإياك أسأل فلا تحرمْني، وفي فضلك أرغبُ فلا تخيّبني، ولجنابك أنتسبُ فلا تبعِدني، وببابك أقِفُ فلا تطردني.

إلهي، إن القضاءَ والقَدرَ غلبني، وإن الهوى بوَثائق الشهوة أسَرني، فكن أنت الناصرَ لي حتى تنصرني وتنصر بي، وأغنني بفضلك حتى أستغني بفضلك عن طلبي، أنت الذي أشرقتَ الأنوار في قلوب أوليائك، وأنت الذي أزلتَ الأغيارَ من أسرار أحبائك، أنت المؤنس لهم حتى أوحشتهم العَوالم، وأنت الذي هديتهم حتى استبانت لهم المعالم، ماذا وجدَ من فقدك، وما الذي فقدَ من وجدك. لقد خاب من رضي دونك بدلًا، ولقد خسر من بغى دونك متحوّلًا، كيف يُرجى سواك وأنت ما قطعت الإحسان، وكيف يُطلب من غيرك وأنت ما بدلت عادة الامتنان. يا من أذاق أحباءه حلاوة مؤانسته فقاموا بين يديه متملقين، ويا من ألبس أولياءه ملابس هيبته فقاموا بعزّته مستعزين، أنت الذاكر من قبل ذكر الذاكرين، وأنت البادي بالإحسان من قبل توجّه العابدين، وأنت الجوّاد بالإعطاء من قبل طلب الطالبين، وأنت الوهّاب لنا ثم أنت لما وهبتنا من المستقرضين، فاطلُبني برحمتك حتى أصِلَ إليك، واجذبني بمنّك حتى أقبل عليك.

إلهي، إن رجائي لا ينقطع عنك وإن عصيتك، كما أن خوفي لا يزايلني وإن أطعتك، قد دفعتني العوالم إليك وأوقفني علمي بكرمك، فكيف أخيب وأنت أملي، أم كيف أهان وعليك متكلي، كيف أستعزّ وفي الذلة أركزتني، أم كيف لا أستعزّ وإليك قد نسبتني، كيف لا أفتقر وأنت الذي في الفقر أقمتني، أم كيف أفتقر وأنت الذي بجودك أغنيتني، أنت الذي لا إله غيرك تعرّفت

لكلّ شيءٍ فما جهلك شيءٌ، وأنت تعرفت لي في كل شيءٍ، فرأيتك ظاهراً في كل شيءٍ، فأنت الظاهر لكل شيءٍ، يا من استوى برحمانيته على عرشه فصار العرش غيبا في رحمانيته كما صارت العوالم غيبا في عرشه، محقت الآثار بالآثار، ومحوت الأغيار بمحيطات أفلاك الأنوار، يا من احتجب في سرادقات عزه عن أن تدركه الأبصار، يا من تجلى بكمال بهائه فتحققت عظمته الأسرار، كيف تخفى وأنت الظاهر، أم كيف تغيب وأنت الرقيب الحاضر.

وصلى الله وتبارك وتعالى على سيدنا محمدٍ النبي الأمي الطاهر الذكي،

وعلى آله صلاةً تحلّ بها العقد وتفرج بها الكرب ويزول بها

الضرر، وتهون بها الأمور الصعاب، صلاة ترضيك

وترضيه، وترضى بها عنا يا ربّ العالمين.

فهرس تاج العروس

تم بحمد الله